إقرأ

الدكتور إسحق موسى الحسيني

مذكرات دجاجة

دار المعارف بمصر

الدكتور اسحق موسى الحسيني

مذكرات دجاجة

اقرأ ٨

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف

مذكرات دجاجة

مقدمة

بقلم الدكتور طه حسين بك

هذه دجاجة عاقلة جد عاقلة ، ماذا أقول ! بل هى دجاجة مفلسفة تدرس شؤون الاجتماع فى كثير من التعمق وتدبر الرأى ، فتصل إلى استكشاف بعض الأدواء الاجتماعية وتصف لها الدواء . ماذا أقول ! بل هى دجاجة شاعرة تجد ألم الحب ولذته وعواطفه المختلفة التى تدق أحياناً حتى لا يهتدى إليها إلا الشعراء الملهمون ولا يقدر على تصويرها إلا الذين أوتوا حظاً من سحر البيان ! بل هى دجاجة رحيمة تعطف على الضعفاء والبائسين وترق للمحرومين وتؤثرهم على نفسها و إن كان بها خصاصة ؛ وهى على هذا كله بليغة فصيحة تفكر فتحسن التفكير وتؤدى فتجيد الأداء ! ومن المحقق

أن هذه الدجاجة تشعر شعور الناس وتفكر تفكيرهم وتعبر كما يعبرون . وقد كنا نظن أن عيوب الناس مقصورة عليهم حين تتصل بالأخلاق الفردية والاجتماعية ، فإذا هذه الدجاجة تبين لنا أن عيوب الناس شائعة فى نوع من أنواع الحيوان هو الدجاج ، وأن محاسن الناس — وهى قليلة — تشاهد أيضاً فى هذا النوع من أنواع الحيوان وهو الدجاج .

وكذلك كشفت لنا هذه الدجاجة عن نظراء يشاركوننا فى لذاتنا وآلامنا وفى محاسننا وعيوبنا . وهى فى ذلك تشبه تلك الحيوانات التى تحدثت فى كليلة ودمنة منذ قرون طوال . ومن يدرى ؟ لعلها تتحدث كما تحدثت تلك الحيوانات جاعلة من نفسها رمزاً لنا معربة عما لا نستطيع نحن أن نعرب عنه حين نريد أن نصور حياتنا ونصف ما فيها من العيوب والأدواء . وهذه الدجاجة فلسطينية وقد كتبت مذكراتها فى أكبر الظن بلغة الدجاج وعلى النحو الذى يصطنعه هذا النوع حين يكتب نبشاً أو تصويراً على ضروب من الصحف لا نعرفها نحن ، والله عز وجل قادر على كل شىء ، وقد علم سليمان عليه السلام منطق الطير ولغة الحيوان . وكأنه علم صديقنا الدكتور إسحق الحسينى لغة الدجاج ،

فقد قرأ مذكرات هذه الدجاجة الفلسطينية ففهم عنها أحسن الفهم وترجم عنها أحسن الترجمة ، وقرأنا نحن ترجمته هذه فشاركنا دجاجة فلسطين فيما أحست من حزن وفرح ومن لذة وألم . ورأينا — وما أعجب مارأينا — أن دجاجة فلسطين تجد من حب الخير وبغض الشر والطموح إلى المثل العليا فى العدل الاجتماعى وفى العدل الدولى وفى كرامة العروبة وحقها فى عزة حديثة تلائم عزتها القديمة ما يجده كل عربى من أهل فلسطين بل من أهل الشرق العربى كله فليت شعرى أيهما ترجم عن صاحبه !! ترجم الدكتور إسحق الحسينى عن الدجاجة أم ترجمت الدجاجة عن إسحق الحسينى؟ وأى غرابة فى ذلك ؟ لقد مضت سنة الشعراء من العرب على أن يشاركوا الحمائم فى الحب والحنين والأسى ، فيترجمون عنهن ، حيناً ويزعمون أنهن يترجمن عنهن حيناً آخر :

أبنات الهديل أسعدن أو عد
ن قليل العزاء بالإسعاد
إيه لله دركن فأنتـ
ن اللواتى تحسن حفظ الوداد

فما يمنع الدكتور إسحق الحسينى أن يتجاوز بهذا الفن حمام القدماء إلى دجاج المحدثين !

أما بعد فإنى سعيد حين أرحب بهذا الكتاب بين أجزاء هذه السلسلة لأنه كتاب صديق كريم ولأنه كتاب أخ من أهل فلسطين ولأن فى صدوره بين أجزاء هذه السلسلة براً بما وعدنا به من جعل هذه السلسلة وسيلة من وسائل التعاون الثقافى وأداة من أدوات الوحدة الفكرية بين أهل الوطن العربى كله .

فلصاحب هذه القصة تحية المحب الذى ينتظر لفنه مستقبلاً باهراً وينتظر منه خيراً كثيراً .

طه حسين

أيها القارىء الكريم :

هذه القصة تصف حياة دجاجة عاشت فى بيتى ، ووقع بينها وبينى ألفة ومحبة . فكنت أطعمها بيدى وأرقب حياتها يوماً فيوماً . والأحداث التى ترويها وقعت لها بالفعل ، وهى لا تتجاوز المألوف فى حياة الدجاج . ولو قدِّر لصديقتى الدجاجة أن تتكلم بلغة الأناسىّ لما قالت غير ما تقرأ . فأنا — فى الواقع — أترجم لك ما أوحت به إلىَّ . أما عنصر الخيال فيها فضئيل ، وهو لا يعدو أن يكون تعليقاً على هامش الحياة أو تحليقاً فى عالم المُثل العُليا .

اسحاق موسى الحسينى

القدس : يوليو سنة ١٩٤٣

مذكرات دجاجة

هذا هو اليوم الثالث من انتقالى إلى بيتى الجديد ، ويظهر أنى سأكون سعيدة هنا بين أترابى الجديدات . إنى حزينة لفراق بيتى القديم ، ولكن حزنى لن يطول . كنت فى بيتى القديم أجد مَيْدان الحياة واسعاً ، والهواء طلقاً ، ولكننى كنت أشكو عسرَ الحياة وقلةَ الطعام ، وعدمَ مبالاة مضيفتنا بعلفنا عن سعة على أنى كنت مع ذلك أجد من ربة البيت حباً كثيراً . كنت أشعر أنها تخالطنا بروحها ، وتُعنى بأمورنا عناية تحملها على أن تعدّنا كل صباح عند انطلاقنا من مأوانا ، وكل مساء عند عودتنا إليه . ما كنت أفهم سرّ هذا العد ، ولكنى أحمله على محافظتها على أرواحنا . بيد أنه إن كان الأمر كذلك فلم فرّطت ربة البيت بى ؟ لقد كنت أحفظ لها فى قلبى جميلاً ، وكنت أنظر إليها حينما أخرج من المأوى نظر إعجاب وحب صادق ، وكنت أظن أنها تبادلنى شعورى ، وأنى سأمكث

عندها مدى الحياة . ولكنى فُوجئت يوماً بقدومها إلينا على غير عادتها مبكرة فى الصباح . وما أدرى سرّ انقباض زوجنا فى ذلك اليوم . يظهر أنه كان يشعر شعوراً غريباً . لقد كان يكْثِرُ من الصِّياح ، وكان فى صوته أنين شعرت به ، ونبّهت إليه إحدى رفيقاتى . فقالت لى : إنك متشائمة اليوم . قلت : قد يكون ذلك ، وأرجو أن يكون يومُنا كأمسنا . و بعد لحظة دخلت ربةُ البيت علينا ، وأقفلت وراءها الباب . فزِعنا . وكنت أشدَّ رفيقاتى فزعاً ، وأسرعَهن إلى القفز إلى الباب . وأخذت أحدّق إلى الربة أتأمل وجهها ، وأحاول أن أتبين فيه سرّ بكورها ، ولكنها بدلاً من أن تنظر إلىّ كعادتها لمع فى عينيها بريقٌ ما رأيت نظيرَه من قبل . و بعد قليل أقبلت نحوى فى سرعة واضطراب ، فثبت فى مكانى وأنا مشفقة عليها متكدرة حزينة ، لأنى أرى فى اضطرابها ما أعجز عن تخفيفه . ثم أسرعت الخُطى وانقضت علىّ ، فنظرت إلى رفيقاتى و إلى زوجى الطيّب فوجدتهم جميعاً جزعين . و يظهر أنّ دُواراً أصاب رأسى منعنى من التفكير فى أمرى ، ولما عاد إلىّ شعورى وددت لو تُبيح ربة البيت إطلاقى لأودّع رفيقاتى وزوجى الطيب . ولكنها بدلاً من أن تُعيننى على تحقيق

رغبتى أوثقت قدمىّ ووضعتنى فى جَفْنة وجاءت بى إلى هذا البيت الجديد .

من يدرى لعلنى أسرفت فى سوء الظن ، ولعلّ ربة البيت آنست منى ضيقاً بالحياة ، فأرادت أن تروّح عنى بمجيئى إلى هذا البيت . ولكنْ ليتها خيّرتنى بين البقاء والذهاب . وليتها رفَقت بى ولم توثق رباطى . ولكنّى إذ أعود بذا كرتى إلى حياتى فى البيت القديم لا أرى ما يدل على أن ربة البيت حسَبت لرأيِى حساباً . هذا على ما يظهر شأن هذه العملاقة التى رزقها الله بسطةً فى الجسم تُخيفنا وترعبنا . كم كنت أتمنى لو كانت ربة البيت تفهم منى ما أقول . إنى إذن لشكرت لها رفقَها بى وحدبَها علىّ يوم كنت نازلة فى بيتها معزَّزة ، ولكنت أوصيتها خيراً بأسرتى ، وخاصة زوجَنا الصالح الذى لن أنساه .

تُرى سأكون سعيدة فى هذا البيت ؟ قلت إننى أشعر بأننى سأكون كذلك . وهذه المظاهر التى حولى هى التى أوحت إلىّ بهذا الشعور . فمنذ ثلاثة أيام وأنا أذوق الحَب السمين يوضع أمامى فى كرم يبلغ حد الإسراف ، والماء يوضع فى إناء نظيف . أظن أنى ضحّيت أشياءَلقاءأشياء . ضحّيت الحياةَ الرحبة الواسعة،

والمناظر الريفية ، وعوضت عنها بوفرة الماء والطعام ، وبقلة العناء فى الوصول إليهما ، إنها نعمة من الله . كنت أريد أن أقول أكثر عن الربة القديمة ، ولكنى أخشى الزلل وسوء الظن . فلأتركن للأيام المقبلة أن ترشدنى إلى الإصالة وتجنّبنى الخطأ . وليقبلْ زوجىَ الصالح وأترابى أصدق عواطفى ومحبتى .

٢

هذا هو اليوم العاشر من مجيئى إلى بيتى الجديد . لقد أردت أن أؤرخ حياتى هنا ، لأنى شعرت فى أعماق نفسى ميلاً إلى كشف السرّ عن تلك المعاملة التى عاملتنى بها ربةُ البيت القديم . هل من الإنصاف أن أُنزع من بين عشيرتى قسراً دون سبب ؟ قلت لعلّ ربتى أرادت خيراً ، وأنا من أجل ذلك أريد أن أعرفَ سرّ ما فعلت . منذ جئت وأنا أؤرخ مجيئى بأن أضع حصاة وراء البيت فى صباح كل يوم . واليوم عند ما وضعت الحصاة العاشرة انتبهت إلى أنى دخلت فى اليوم العاشر ، فوقفت قليلا أفكر فى بيتى القديم ، وفى سرّ تلك الفِعْلَة . الحق أنى فقدت أعزاء ، وأنى لن أجد فى هذا البيت من يعزينى عن

فقدانهم . نعم إن زوجنا هنا يُظهر حباً لى ، ويؤثرنى من حين لآخر فى غفلة عن زوجاته بالحَبِّ السمين . وقد لمحت فى عينيه عطفاً علىّ ، إما لأنه علم بغربتى فأراد أن يواسينى ، وإما لأنّنى ضيفة عليه ، وللضيف مقام .

بدأت آلف البيتَ الجديد وأشعر بكثير من الهناءة والترف . ولكننى فقدت بعض نشاطى . يظهر أن كل ربح لا بد له من خَسارة . ولا يمكن المخلوق أن يأخذ دون أن يُعطى ، ولا أن يُعطى دون أن يأخذ . كان الحَبّ فى بيتنا القديم دونه خرطُ القتاد ، وكنا مع ذلك نستشعر النشاطَ والسرور عند ما نقع على حبة سمينة . أما هنا فالحبّ السمين تذروه الأيدى بسخاء ، ولكننا نأكل دون اشتهاء ولا سرور . إنى آسفة لقولى هذا ، فلعلّه نكران للجميل. ولكننى مهما قلت فإنى أطرح مسئوليته على ربتى القديمة . ليتها استطلعت رأيى . فى الحق أنى كنت أُوثر حياةَ الريف ، ولكنْ من يدرى ! فلأولئك العمالقة أحياناً فهم وبصر فى الحياة ، فلعل ربتى القديمة أرادت بى خيرًا حين نقلتنى إلى هذا البيت ، الذى أكاد أُسميه مِصَحًّا ، ومع ذلك فلأتريثنّ ولأرينّ ما سيكون .

٣

حقاً أن لكل جديد لذة . فإننى أستشعر اليوم بكامل حواسّى لذةً لا حدَّ لها فى بيتى الجديد . و إنى لآسفة لحرمانى هذه اللّذة فى تلك الأيام الطوال التى قضيتها فى بيتى القديم . إنا نفطر ونتغدّى ونتعشى فى ساعات منظّمة ، ونتنزّه بعد كل أكلة فى أرض نظيفة ، وماؤنا قراح يقدّم إلينا فى إناء جميل . وغرفة نومنا تنظف مرتين فى الأسبوع . إنها لحياة منعمة هنيئة .

جلست أمس فى الظل أنظر فى حياتى هذه ، وأقابلها بحياتى القديمة ، فأحمَد الله على أن ساقنى إلى مسكنى الجديد سوقاً لا خيرة لى فيه . يظهر أن المخلوق مسيّر فى هذا الوجود ، وأنه يُدفع إلى الخير أو الشر دفعاً ليس له فيه رأى ولا حيلة . وما دام الأمر كذلك فلم يُعنى المخلوق بكشف الغيب وتعجّل المصير ؟ ليعملْ فى يومه ما يؤمّن له الراحة والسرور ، وليترك الغد لبارىء الخلق . والطمأنينة الوحيدة التى قد تقوم مقام التطلع إلى المستقبل هى عمل الخير المحض ، فالخيّرُ الصالح هو الذى يُنهى حياةَ يومه ونفسُه راضية أتمَّ الرضى عن عمله فى ذلك اليوم .

وفيما أنا أفكر وأحاور نفسى إذ جاء زوجُنا إلىّ وأخذ يُسرّ فى أُذنى حُبَّهُ لى و إعجابه بى دون سائر زوجاته . ولم يسعنى إلا أن أُبادله حبا بحب ، وعطفاً بعطف ، و إعجابا باعجاب . ووجود هذا الزوج الصالح العطوف المُحب هو من سوق القدر !. ولكنى ، بعد أن تبادلنا التحيات ، فكرتُ فى سائر زوجاته ، تُرى أينعَمن بحبه كما أنعَم ؟ أيسمعن منه كما أسمع ؟ أم هنّ محرومات السرور والبهجة ؟ فإن كان الأمر الأول فلا بدّ أن يكون زوجى بارعا فى إدارة بيته ومعاملة زوجاته . قلت بارعا لأنى لا أُحب أن أقول مداهناً أو منافقاً . و إن كان الأمر الثانى فما أشقانى بشقائهن وما أحزننى بحزنهن ! .

ألحق أنى كنت أُوثر أن أنجو من هذا المأزق بأن أعيش مع زوجى وحيدة ، فلا أتهمه ولا أنكد عيشى بوجود سائر زوجاته . ولكن أليس هذا أنانية منى ؟ لِمَ لا أقنع قناعةَ سائر الزوجات ؟ ولم أُفسد حياتى بهذه المطامع البعيدة ؟ لنأخذ الحياة كما هى إن شئنا أن ننعَم بالطمأنينة ، فالحياة معقّدة مبهمة ، ولاسبيل إلى خلقها خالية من هذا التعقيد والإبهام .

يظهر أن المخلوق يُرزق الرضى والقناعة عند مجيئه إلى الحياة ،

ثم مايفتأ يوسّع من رغباته وآماله حتى يُفسِد عليه فطرتَه الأولى . لا أريد أن أكون من ذلك الطراز ، وسأحرص منذ اليوم على أن ألتزم فطرتى الأولى . وبعد أن دارت فى نفسى هذه الأفكار بسرعة ، ذهبت إلى زوجى وقلت له : أنتَ حبةُ القلب ومُنى النفس ، ومثلك خليق بأن يُرزق السعادة وأن يحظى بالمحبة والوفاء . التفت إلىّ وقال ضاحكا : وأنتِ كذلك . أظن أنه قالها والبشر يملأ قلبه . إنى أعتقد أن زوجى ساذج ، وأن فطرته الأولى لم يشُبها طمع . لعلّه حُرم هذه التأملات فسلِم مما يعكر صفوه . أُريد أن أقول إنه خير منى ، وإنْ لم يكن كذلك فهو على الأقل أنعمُ بالا وأهدأ نفساً .

٤

لقد شغفنى زوجى حباً ، وتملّك كلَّ جارحةٍ من جوارحى . ولو كان لى أن أقتطع من لحمى شطراً وأُطعمه إياه لفعلت . ولو كان لى أن أتخذ من عينى ماء وأسقيه إياه لما توانيت . ولو كان لى أن أكسوه أجمل ثيابى لما ترددت .

ولم لا أفعل كل ذلك ؟ إنه لمثال المروءة والكرم والحنو والحبّ .

إن وقع على حَبَّة سمينة دعانا إليها ، وآثرنا بها دونه . وإن سقط على شربة ماء توقف واستقدمنا لنبدأ بالشرب قبله . وإن سمع صوتا مفزعاً انتفخت أوداجُه ، وتصلّبت أعصابه ، وثار الدم فى وجهه ، واستعد للقاء المكروه بنفسه . ولو جاء المكروه من أكبر مخلوق وأقسى معتد لكان موقفه موقفَ المدافع الذابّ عن حماه . فليت شعرى أى مخلوق يقف منا هذا الموقف النبيل ؟ .

(وجماله فتنة لا مثيلَ لها ، وصوته سحر لا يشبهه شىء . أودُّ أحياناً أن ينقلب جسمى كله عينا واسعة الحدقة لتستمتع بجماله ولتغرف من جلاله ما شاء لها الله أن تفعل . وكم أود أن ينقلب جسمى كله أُذنا واسعة مرهفَة لتتلقّف صوتَه الجميل ، ولتستمع إلى أناشيده الرائعة وغنائه العذب . وكم آسف لأنى لا أستطيع أن أكون كما أريد . فليُغنْ المُنى عن بلوغ الغرض . ولتَنُبِ الأمانى عن تحقيق الرجاء .

(أمّا ذلك العرف القرمزى الليّن ، الذى يتدلّى من مفرِقه ، فقطعة فنية من صنع خالق مِفَنٍ بارع . وأما ذلك العُنُق الطويل الوسيم الذى يشبه غصنَ المنثور وقت ازدهاره ، وأما ذلك الفم الجميل الدقيق الذى أودعه اللهُ أعذبَ لسان ، وأما ذانك الجناحان

الملوّنان بأجمل الألوان ، وأما تانك الساقان الدقيقتان ، وتلك الأصابع الزمرّدية ، وتلك الأظافر العاجية، وتلك المِشية المتهادية فصنع خالق جميل ، أحبّ الجمالَ فطبع خلقَه بطابعِه ، وأنشأهم على صورته ، فجاءوا أجملَ مخلوقات من صنع أجمل خالق .

ما أبهَج صباحنا حين يخرج زوجُنا من مخدعه ويمشى مِشية المدلّ بجماله ! ويصعّد فى أعلى مكان ، ويفتّن فى الإنشاد والشدو فى صوت هو السحر الحلال ! إنا لنخرج فى الصباح ونقف ذاهلات من فرط ما نشعر به من روعة ونشوة . وكم نتمنّى أن يقف الزمانُ فى تلك اللحظة ليستمرّ ذلك الصوتُ فى نغماته وليّاته .

وما يكاد زوجُنا يرانا حتى يهرع إلينا محييا مؤانساً ملاطفاً . فكأننا أحب إليه من غنائه . وهو لو يدرى ما فى قلوبنا لعلم أن غناءه أحبُّ إلينا من أنفسنا . وبعد أن يحيينا يقودنا لطلب الطعام الشهىّ ، وتخيُّر المجلس الأنيق .

لقد أردت اليوم أن أداعبه فانفصلت عنه وانتحيْتُ مكاناً قصيًّا لأرى ما يفعل . وبعد لحظة استفقدنى فنظر حوله يمنة ويسرة فما وجدنى . فانتفض ودار دورة حول زوجاته ثم انطلق يبحث عنى فما وجدنى ، لأنى كنت مختبئة وراء صخر ، فراح

يقطع الساحة طولا وعرضاً ، ويدمدم فى صوت فيه قسوة الموتور وحزن المكلوم ، ثم أخذ يعلو الحجارة المبعثرة فى الساحة وأنا أتستّر عنه ، ولما لم يجدنى قفز على سطح المسكن وأخذ يحدّق ببصره فى جميع الجهات ويناديني بصوت عذب وشدو رقيق ، مستفسراً عن مكانى ، وما أصابنى . وعندئذ انفرطت دمعةٌ من عينى ولم أتمالك أن تحركت ، فلمَحَ حركتى بعين كأنها جمرة متّقدة ، ثم انطلق نحوى كالسهم ، فنظرت فى عينيه وقد جمع الله فيهما الحبَّ كلَّه والحنانَ جميعه ، فما تمالكت أن دنوت منه وسرت بجانبه ، فعدنا إلى الساحة وعاد إليه بشره ومرحه .

ما أسعدنا وما أطيب أيامنا فى هذه الحياة ! إن نعمة الحُب هى نعمة النعم . فما أجدرنا أن نقدرها قدرها ، ونفيَها حقها . لقد خاب من ظَنّ أنّ النعمة فى المتاع أو المسكن أو الملبس أو الطعام أو الشراب . إنَّ النعمة هى الحُب وحده ، فإن وُجد تركزت جميعُ نعم الدنيا فيه ، وإن فقُد عادت نعمُ الدنيا جميعُها إلى العدم

٥

كان الطقس البارحة بارداً ، والسماء ملبدة بالغيوم ، فشعرنا جميعا بانقباض لازمنا طول النهار . وفى صباح هذا اليوم أشرقت الشمس فأرسلت مع نورها الجميل حرارة توغلت فى أجسامنا فشاع فيها الانشراح والسرور .

عجيب أمر هذه الدنيا . ففى يوم يمتلكنا الانقباض والضجر ، وفى آخر يشيع فى قلوبنا الطرب والفرح . ترى ما سرّ هذين الشعورين المتناقضين ؟ فهل النور والدِّفء وسيلة من وسائل البهجة والسرور ؟ وهل البرد والظلام وسيلة من وسائل الانقباض والضيق ؟ إن كان الأمر كذلك فلا بد أن يكون الخالق قدر للخلق أن ينقبضوا يوما ، ليبتهجوا يوماً آخر . ولعله أراد أن يلوّن الحياة بلونين متناقضين ليستطعموا السرور بعد الابتئاس والفرج بعد الشدة ، واليسر بعد العسر . ولو كانت أيام الخلق جميعها على وتيرة واحدة لكانت حياتهم ذات لون واحد وطعم واحد ، ولما وقعت لهم المتناقضات التى هى فتنة الحياة ، ومصدر السعى والنشاط . ما على المخلوق إذن أن يتبرم بالحياة وهو عالم

بأن لعسره حدوداً تنتهى عند يسره ، وأن ليسره حدوداً تنتهى عند عسره .

لله ما أشقانى ! فقد عدت إلى ما حاولت أن أدفعه عن نفسى من نظر لا طائل تحته . ما الذى يعنينى من هـذه المتناقضات وهذه النظرات ؟ ألست مخلوقاً مسيراً لا حول له ولا طول ؟ ولكن عقلى لجوج فى التفكير والتأملات . فلو قدِّر لى أن أُلْجِمَهُ بلجام القدر لآب إلى رشده واستقرّ حيث قدر له أن يستقر .

قلت كانت الشمس اليوم قوية ، وخرجنا من مأوانا نلتمس حرارتها ودِفأَها ، وقد جلسنا فى حلْقة يتوسطها زوجنا الصالح ، بعد أن مهد كل منا لنفسه مجلساً يشعر فيـه الدفء والراحة . لا أدرى لم جاء مجلسى مقابلا لمجلس زوجنا الصالح . أجاء ذلك عن قصد وتدبر أم جاء عن صدفة وانسياق طبيعى ؟ وعلى كل حال فقد هيأ لى مركزى هذا فرصة النظر إلى وجه زوجى ، فما رفعت عينىّ عنـه ، وما انقطع تفكيرى فيه . واليوم لأول مرة شعرت بأنى محبة مولهَة إلى حد الاستخذاء والاستسلام ، وأنى أرى السعادةَ فى وجوده ، والبهجةَ فى لقائه والأنس فى جانبه . ولا أدرى أيوجد بعد هذا السرور دور آخر ؟ ماذا وراء هذا

الهيام؟ وماذا وراء هذا الوجد؟ كم أودّ أن أوضع موضع التجربة أولاً لأختبر نفسى نحو هـذا الذى أشعر به، وثانياً لأختبر حبى بالقياس إلى حب سائر زوجاته. أتمنى مثلا أن يأتى يوم قاس فيطلب منى زوجى أن أعطيه دِثارى، وأن أنزع ماعلىّ فيكون له وحده، أو أن يمرض فيلتمس طبه من دمى، فإن قدمت له ماطلب كنت صادقة فى حبى له غير واهمة ولا مبالغة، و إن امتنعت تبيّن أنى كنت فى نشوة الحب لا فى الحب نفسه. ومن يُدر ينا لعل يوماً يأتى وتأتى معه المحنة، فأتثبَّت من شعورى. فلأترقبنّ حوادث الدهر فى غير ضجر ولا احتيال.

٦

لقد كاد يومنا هذا أن ينتهى إلى شرّ، وكاد زوجى الحبيب أن يقع فى ورطة. فقبيل بزوغ الشمس وحَينْ ساعة الانطلاق من مأوانا شعرت بيد زوجى تهزُّ يدى برفق، فاستيقظت فوراً وفتحت عينى، فإذا ابتسامة ساحرة على فمه. فحدّقت إليه مستطلعة ولكنه لم ينطق. فعدت إلى إغفاءة الصبح. و بعد ثوان أعاد زوجى حركته الأولى، ففتحت عينىّ ورأيته متأهباً للخروج

فنظرت إلى فمه أتوقع كلمة منه فلم يزد أن حرّك رأسه أن اتبعينى. عجبت لحاله، وكدت أثبت فى مكانى لولا أنى فطنت إلى أنه قد يُسِرُّ أمراً. فتبعته فى خفة إلى خارج المأوى. وهناك توقف لحظة وألقى فى أُذنى هذه الكلمة: اتبعينى أيتها الحبيبة. ولو بلغت إرادتى أقصى حدها من القوة والنفاذ لما استطعت أن أرد له أمراً

سار وسرت معه، فأخذ يتخطى الحجارة المبعثرة فى الساحة باحثاً عن بقعة مرتفعة يجلس عليها فلم يجد مكاناً خيراً من جذع شجرة نضدت حولها حجارة كبيرة، فجلس وجلستُ إلى جانبه متجهين نحو مشرق الشمس.

قال لى فى صوت عذب: لعلك تعجبين لخروجى بك على غير عادتنا فى هذا الصباح! قلت: نعم، وحياتك! قال: أريد أن أخلو لحظات أبثك فيها لواعج حبى فقلت له: لقد وقع ذلك منك قبل الآن، وإن لم تنقله إلىّ بصورة أصوات، وإنى ما شككت قط فى حبك لى وعطفك علىّ. قال: ما يزيدنى كلامُك هذا إلا حباً وإعجابا. ولكنى أود أن أُفصح لك عما لا سبيل إلى الافصاح عنه فى غير انفراد. أنت ترين سائر زوجاتى، وترين حبهن لى وحبى لهن، وما أملك حق التفريق

بينهن ، وما كان لى أن أوثرك عليهن ، ولكن لا حيلة لى فيما أشعر به ، فأنت تحتلين المقام الأول فى قلبى ، ومذ جئت وأنت تفتنيننى بحسن عشرتك ، ورقة حاشيتك ، ورزانة عقلك ، وعذوبة حديثك ، وتكلفك إرضائى بجميع الوسائل و إنى لأعلم أنك لو تقدرين على إعطائى جزءاً من لحمك لفعلت . قلت : ياحبيبى ، أنت أهل لهذا ، فقاطعنى قائلاً : ولا أود أن أوهمك أنى لا أُحب سائر زوجاتى ، فإنهن محببات إلىَّ ، عزيزات علىَّ ، ولكن حبك نوع آخر . الحق أنى لا أعرف كيف أُعبر عما أشعر به نحوك . ربما يحسن بى أن أقول إنك أقدر سائر زوجاتى على إرضائى والتحكم بعواطفى . قلت له : يا حبيبى الحُب واحد . وجميع زوجاتك ، وأنا معهن ، يحببنك حباً متساويا . وما أحسبك إلا محباً لنا جميعاً على السواء . وما تشعر به الآن قد يكون مجاملة أو ظرفا دُفعت إليه لسبب من الأسباب . فالحب إن كان من الأعماق لا يصح أن يوضع فى مراتب . فهو من مصدر واحد و إلى غاية واحدة . وأنت لنا جميعا بقلبك وعواطفك ، وما رأيناك تؤثر إحدانا على الأخريات . وحبك لنا مصدره قلبك الذى لا يجوز عليه التقسيم . فابتسم وقال : ومن أين لزوجاتى

مثل هذا المنطق العذب ؟ قلت ، وطرفى منكسر : إنك ياحبيبى ينبوع الحكمة . فقال : ومن أين لهن مثل ذوقك وحصافتك ؟ وفيم أهُمّ بالجواب إذ حركة تنبعث من ناحية المأوى ، وإذ الصديقات متجمعات قرب الباب ينظرن إلينا فى دهشة. فتركت زوجى وأسرعت إليهن أحييهن وأسألهن عن حالهنّ . فتضاحكن ، وقالت إحداهن : أراقك بزوغ الفجر ؟ وقالت ثانية : أتجدين فى هواء الصباح المبَكِّر رقة وعذوبة ؟ فقلت مستحيية : يا صديقاتى ، اللذة لا تكون إلا معكن ، فالصباح والهواء والطعام والماء جميعها من مادة واحدة لا تختلف ، ولكنها تُصبح ذوات طعم خاص إن اقترنت بصحبتكن وحبكن ، فأنتن مصدر اللذة والمتعة . فقالت الأولى : وزوجنا ؟ فوقعت علىّ هذه الكلمة كالصاعقة ، ولم يرد إلىّ رشدى إلا قدوم زوجنا ، فخفضت من صوتى وخفضن من أصواتهن ، وتظاهرت وتظاهرن بالبشر والسرور . ومن يستطيع أن يرفع طرفه فى ذلك الوجه المشرق ؟ إن أقصى ما تبلغه عيوننا تان الساقان الرقيقتان الأنيقتان .

جاء زوجنَا وسار أمامنا يلتمس الطعام والشراب والمجلسَ

الأنيق ، فتبعناه . وهل يقابل مثل ذلك العمل إلاّ بالاستسلام ؟ بِم تقابلُ من يؤثرك على نفسه بالطعام والشراب ، ومن يَفديك بروحه حين يعزّ الفداء . ؟.

لقد كانت ورطة في الصباح ، ولا أدرى كيف تنتهى .

٧

تمرُّ الأيام وتنقضى الأعمار ، والمخلوق غافل كأنه ثمِل ، لا يعى مايسمع ولا يرى مايُبْصر . وفى حالات كأنها لحظات يستيقظ من غفلته ويُصْبح مرهف الحس ؛ حديد البصر ، قوى السمع ، تتجمع فيه جميعُ القوى ، ويحسُّ ما حوله حسًّا عنيفاً . فكأنه قد ادَّخَر في إبان غفلته جميعَ حواسه ليطلقها فى تلك اللحظات القليلات .

كنا اليوم فى حالة من هذه الحالات التى تنتاب المخلوق . فقد أقام زوجُنا حفلة رائعة قضينا فيها ساعات نلهو بالرقص والشراب والغناء . كان زوجنا فى هذه الحفلة مطلقاً لنفسه العنانِ يُمْعنُ فى الشراب واللهو كأنه يودع الدنيا وداعه الأخير . فأَكل أكلَ النهَّمِ ، وشرِب شرابَ الظمآن ، ورقص رقص

الشياطين . ولم نكن نحن جميعاً أقلَّ منه تهالكا على اللذات ، فشربنا حتى دبَّت النشوة فى جميع أطرافنا ، وأكلنا حتى ماوجدنا مكانا لمزيد ، ورقصنا حتى خدِرت أرجلنا .

كنت أحسب اللذة الجسمية تنتهى عند حد . وأن معدة المخلوق لاتتجاوز حدَّ الشبع من طعام أو شراب . ولكنى بعد أن أكلت ما أكلت ، وشربت ماشربت صرت أعتقد أن طاقة المخلوق على الطعام والشراب أقوى مما يظن . كنت أعجب أين يذهب الطعام والشراب اللذان إن وزنتُهما زاد وزنهما عن وزن جسمى . فيا للعجب كيف يدخل إلى جسمى مايساوى جسمى !

كان الشراب يلعب برؤوسنا ، فينقلنا إلى عالمَ الأحلام . فما نرى إلاَّ أرواحاً كالملائكة تُحيط بنا وتأخذ بأيدينا مراقصَة مضاحكة فى مؤانسة لاحدّ لها. وكانت الأرواح تتراءى لنا كأنها متزينة بأحسن زينة ، وتظهر من أجسامها مايسلب عقولَنا ويدفعنا إلى الإمعان فى اللهو والاستمتاع .

أما زوجنا الصالح فقد انقلب فى أعيننا إلى روح من تلك الأرواح . وتراءى لنا كأنه آخاها ودخل فى زمرتها . فنَزَعتْ

عليه ألبستَها الجميلة . وما امتاز بأعيننا إلا بوجهه المتوج بذلك العرف القرمزى . أما نحن — زوجاتِه — فكنا بين أيدى تلك الأرواح كالدُّمى بين أيدى الأطفال يجرّونها كيف شاءوا ، وحيث شاءوا .

وشعرنا بأن تلك الهيبة التى يتحلّى بها زوجُنا قد انقلبت إلى ألفة كالتى تكون بين طفلين ، وأن تلك الحشمة والكلفة اللتين نصطنعهما فى حياتنا قد انقلبتا إلى ألفة وخلطة بالغتين أقصى حدودهما .

ما أذكر أننى شعرت بكامل وعيى وإحساسى كما شعرت اليوم . فكأنى نمت دهراً واستيقظت ساعة وأنا على أحدّ ما أكون من النشاط ودقة الحس . كنت أشعر أنى مخلوق جديد رزق إحساس جيل من الخلق ، وقوة عملاق من الجن ، وأنى أستطيع أن أسيّر الأيام ببنانى .

ظللنا على هذه الحال من الصباح حتى العصر . وما منّا إلاَّ مَنْ يتوقع أن يُواصِلَ يومَه بليله إلى آخر العمر . فمن يصحو صحونا هذا ، ومن يستمتع استمتاعنا هذا ، وينتقل بروحه إلى عالم الأرواح ، ثم يهون عليه أن تنتهى هذه الحالة فى وقت قريب

أو بعيد ؟ ولكن فيما نحن فى هذه النشوة هبط علينا عدوّ مخيف . لا أدرى من أين جاء ، وكيف استطاع أن يجد سبيله إلى عالم الأرواح الذى كنا فيه . فما رآه زوجنا حتى انتفض انتفاضة شديدة ، ووقف يقابله وجهاً لوجه . ويظهر أن ذلك العدو كان يرقب مانحن فيه من لهو وشراب ، وكان يحسب أنا نستسلم له ، ولا نجد فى أنفسنا مايرد عُدوانَه . ولكن زوجنا ظهر فى حالة ترعب الرعب ، وكأن جميعَ الأرواح قداندمجت فى نفسه ، فانقضّ على العدو مصاولا مقاتلا . أمّا نحن فلم نستطع حراكا . فقدتولّانا الذعر ، وراعنا العدوانُ الطارئ . فجلسنا نشهد الصراع بين خصمين جبارين . استمرّ القتال طويلا ، وكان زوجنا يعلو خصمه تارة ، ويعلوه خصمه تارة أخرى . وكان الدمُ يتفجر من جسمه أشد ما يكون حمرة . لقد كان الصراع فى حالة توهمنا أن زوجنا هالك لامحالة . فقد كان العدو أقسى قلباً وأشدَّ عنفاً وأطولَ باعاً من زوجنا . ولكنَّ قوةً من الله حلّت فى زوجنا فى لحظة ، فقرع رأس خصمه قرعة أفقدته رشدَه فقمنا إليه مهلّلات مهنئات . فزادت الحمية فى نفسه وانقضَّ على خصمه انقضاضة أفقدته الحياة . وطرح الخصم المعتدى فى خارج الجدار . عاد زوُجنا إلينا وعدنا

نحن إلى أنفسنا نَتَفَقَّدها ونلتمس العودة إلى ما كنا فيه . ولكن ما أبعدَما طلبنا . فقد عادت نشوتنا أشبه بحلم ، وعادت نفوسنا إلى حالتها الأولى. وفى الحق أنَّا لم نفكر طويلا فيما كنا فيه ، فقد صرفنا عن ذلك الجروحُ البالغة التى أصابت زوجَنا . ولم تألُ كلٌّ واحدة منا بذل الجهد ، وما فوق الجهد فى تضميد جراحه ومواساته . ولم نجد خيراً من أن ننتقل جميعاً إلى مأوانا نستعجل الليل .

كنا من الصباح إلى العصر فى حالة وعى عجيبة . وكنا نحسب أن زوال تلك الحالة من أبعد الأمور . فينبغى لنا على الأقل وقت يعادل ذلك الوقت الذى لهونا فيه كى نسترد غيبوبتنا التى تلازمنا فى أيامنا ولكن لم يمر أكثرُ من نصف ساعة حتى خرجنا من طور اليقظة إلى طور التخْدير .

كانت حفلة اليوم حالة من تلك الحالات القليلة التى يستيقظ فيها المخلوق من غفوته ، ويعيش بكامل حواسه . أفنعود إلى مثلها يا ترى ؟ .

٨

جلست أفكر اليوم بعد تلك الحفلة فى مصيرنا لو قُدِّر لذلك العدوّ أن يَصْرَع زوجنا . لا شك فى أننا لانستطيع أن نقاوِمَه ولا سبيل لنا سوى الاستخذاء والاستسلام . قلت فى نفسى : تُرى ألا يخطر مثلُ هذا الخاطر فى بال زوجنا ؟ ألا يقدِّرُ ما يكون عليه حالُنا بعد مصرعه ؟ و إنْ فكّر فماذا أعدّ لنا من وسائل الدفاع ؟ أغلب الظن أنه لم يفكر فى شىء من هذا ، لأنه لو فكر لأطلعنا على ما هيأ من عدّة .

لقد قادنى هذا الأمر إلى الطغيان فى الفكر ، و إلى الإسراف فى الطموح . ولا عجب فى ذلك فالقضية قضية موت أو حياة . لقد حملنى تفكيرى على وجوب التسلّح بمثل القوة التى يتسلح بها زوجُنا . يجب أن نتخذ العُدَّة لندافع عن أنفسنا فى وقت الشدة ، وأن لا نتركَ تحت رحمة الدهر القلّب . وما يَمنع الانثى أن تكون كالذكر فى مقارعة الخطوب وملاقاة الأهوال ، وعراكِ الأزمات ؟ وإلى متى نظل عالة على الذكر نحمّله مسئولياتنا ومتاعبَنا ؟ نعم إنَّ عليه مسئوليةً تعادل ما ركب اللهُ فيه من

قوة و بأس ، ولـكن علينا نحن أيضا مسئولية تعادل ما أودع الله فينا من حركة وحياة . فيجب أن لا نقعد ، عند الملمّات ، جزعات ، فزعات ، مستسلمات مخذولات . يجب أن نكون للذكر مصدرَ قوة لا مصدر ضعف . و إذا لم يركب الله فوق مفرق الأنثى عُرفا كعرف الذكر فقد ركَّب فيها عقلا كعقله ، ونفسا كنفسه ، وقلبا كقلبه . وهى إن لم تستطع أن تنافسه وتجاريه ، فإنها تستطيع أن تكوّن من نفسها قوةً تستقلّ بها عنه فى الملمَّات .

لو كان الذكر يدوم للأنثى دوامَ العمر ، ولو كنا نضمن له السلامةَ والعافية والظفر فى جميع الملمّات ، لما حق لنا أن نفذ بآمالنا الى هذا الحدّ . ولكن لا الدهر مأمون ، ولا الأحداث مضمونة ، ولا الذكر مكفول العمر . ونحن بين أمرين : إما أن نعيش عيشة الأيم والبؤس والشقاء عند فقد ذكورنا ، و إما أن نسلح أنفسنا ضد العوادى والخطوب منذ نشأتنا ، وفى أيام صبانا . فنخفف من قسوة الدهر ، ونقلّم من أظفار المصائب .

حملتنى تلك الحادثة المروّعة فى يوم الحفلة على إرسال الفكر فى مثل هذه التأملات . وأظن أنى شططت . فليس لى أن

أُخلق من جديد ، وليس لى أن أستدرك ما فات . ولكنى أملك التمنّى والتعزى . ولمن يأتى بعدى من ذاوت العقـل النيّر والبصيرة الواعية ، أن يتجاوزن حدود الأمانى إلى حدود العمل .

٩

قضينا أسبوعا كاملا حول مرقد زوجنا الصالح نعالجه ونَضمُد جراحَه التى أصابته فى ذلك الصراع . وكان زوجُنا فى أثناء هذا الأسبوع منحرف المزاج ، كثير التـألم والتوجّع من جروحه . وكان وجهه تعلوه صفرة ، وعرفُه القرمزى مسترخياً قاتم اللون . وكان أحياناً يرفع صوتَه بالأنين والشكوى . نظرتُ فى حاله وعجبت لخَوَرِه وضعفه بعد تلك القوة وتلك العزيمة اللتين كان يُبديهما قبل تلك الواقعة . كنت أرى زوجَنا فى حال من البأس فى الأيام السابقة توهمنى أنه كفىٌّ لمصارعة الدهر ، ومصاولة الخطوب ، ومقارعة الأحداث . فإذا به بعد تلك الواقعة يُصبح فى حالة أضعف المخلوقات . ترى أتغيَّرت روحه ؟ أم تغيّر جسمه ؟ أم ماذا أصابه ؟ وهل المخلوق من الهوان والضّعة بحيث ينقلب

اعتدادُه بقوته ، وخيلاؤه ، فى أيام قلائل ، إلى انكسار وتراخ وخذلان ؟ .

لقد أتاح لى هذا الأسبوع أن أبلو زوجاته بلاء ما تيسّر لى فى أثناء عشرتنا السابقة . وكأن زوجنا كان سِمْطَ العقْد ، فما انقطع حتى انفرطت الحبّات ، وذهبت كل حبة فى سبيلها . أو هو أشبه بعمود البيت سقط فتداعت الجوانب إلى السقوط . ولكن هذا العمود فى نفسه كسائر جوانب البيت قوة وضعفاً . فهو فى مرضه يئنّ كما يئن كل مريض ، ويتألم كما يتألم كل مكلوم

لا أستطيع أن أقول إن إحدى زوجاته تهاونت فى أمره ، وقصرت فى أداء واجبها نحوه . أو أننى فُقت زوجاته حَدَباً عليه ورفقاً به . ولكنى شعرت بأنا لم نكن متساويات فى شعورنا . سمعت إحدى زوجاته — وهى صاحبة تلك الكلمة فى ذلك الصباح الذى خلوت فيه بزوجي دون سائر زوجاته — سمعتها تقول : على الزوجة التى آثرها زوجها بحبّه أن تقوم بالدور الأول فى معالجته ، وعلى تلك الزوجة التى فَتَنَتْ زوجَهـا واستأثرت بعواطفه دوننا أن تشاركه اليوم فى آلامَه . أما نحن فما علينا من ذلك كله . نعم ، إنا نؤدى واجبنا نحو زوجنا العزيز ، ذلك الواجب الذى فرضه

علينا الدين والخلق ، ولكن لا نستطيع أن نتكلف ما فوق طاقتنا . لقد خُلِق ليلنا للنوم ونهارُنا للعمل ، فإذا جاء الليل اتّخذناه لنا لباساً ، وما استطعنا أن ندفعه عنا . وحين يأتي النهار نتفرّغ لواجباتنا دأبنا كل يوم ! والله لقد كانت كل كلمة من هذه الكلمات التى تفوّهتْ بها تربْى أشدَّ علىّ من وقع السهام لست أفتخر إذ أقول إنى ما شعرت بالنوم إلا لماماً فى أثناء تمريض زوجى . ومن أين لجفنىَّ التغميض وجفنا ذلك الزوج الصالح مفتّحتان . ومع ذلك فلست بزاعمة أن تلك الترب الطيبة كانت أقلَّ منى عناية بزوجنا ، ولكنّى أظن أن قلب المخلوق لا يسعه أن يخلو من الغيرة . وأرى من الإنصاف أن أذكر موقف إحدى أترابى الطيّب . فقد كانت تبالغ فى خدمة زوجنا وتخلِّى نفسَها من كل شغل سواه . فلا يطلب حاجةً إلاّ تبادرُ إليه بها ، كأنها أنشطنا حركة ، وأسرعنا خطواً ، وهى فى الواقع أكبرُنا سنًّا ، وأضعفنا جسما . ولست أعجب لموقف تلك الترب ، فإنها فى نظرى مثال الاتّزان والكمال ، وحسن الخلق وطيب النِجَار . وهى لا شك نبيهة ذكية الفؤاد دقيقة الحسّ ولا بد أن تكون قد أحَسَّت فى ذلك الصباح الذى خلوت به

الأصل والحسب

بزوجى ما أحسَّ به سائرُ الزوجات ، ومع ذلك لم تبد ما يُشعر بالانحراف عن مسلكها ، لا فى أيام مرض زوجنا ولا قبله . أما الترب التى أتورّع عن وصفها بالتحديد خَشية أن أنال من كرامتها فقد كانت تُشغل عن زوجها من حين لآخر بطعامها وشرابها . فإذا جاء وقتُ الطعام لم تبال بما حولها . وكانت الدنيا عندها تسير سيرها المألوف ، ولو وقعت فى تلك الساعة صاعقة على غيرها لما نفضت يدها من طعامها . إننى لا أتحامل على هذه الترب ولا أسلقها بلسانى ، فلقد عرفت فيها نهمها وشرهها قبل هذا الأسبوع . وما دامت مسوقة بطبيعتها فلا جُناح عليها .

إنى إذ أُمارس هذه الحالات وأبلو هذه المواقف أُحمل على درس طبائع المخلوقات والحكم عليها . فمن المخلوقات من ركب فيه الحسد والغيرة ، ومنهم من ركب فيه الشهوة العنيفة للذة من اللذات ، ينفق فى طلبها ما يملك . ومنهم من وهب الحكمة والسداد والاعتدال فلزمها فى حياته جميعها ، ومنهم من رزق الُحْب والإخلاص والتضحية فشارك أصدقاءه فى بؤسهم ونعيمهم ، وضرائهم وسرائهم على السواء .

إن كان هناك شىء يُبْهِمُ علىَّ ويستغلق فهو سر هذا الاختلاف

بين المخلوقات . وما أدرى إلى أى حد يُسأل المخلوق عن خلقه وطبيعته ، ما دام بريئاً من كل قدرة على تكوين نفسه بنفسه ، وما دام مدفوعاً الى ما ركب فيه دفعاً لا قدرة له عليه . ولكن من أين للمخلوق سعة الصدر ، ورحابة الفكر وسموّ النظر ، التى تحمله على أن يبرّر موقف كل مخلوق فى الموقف الذى يتخذه . تلك لا شك سجايا ينفرد بها الاقلّون . ومنْ رزقها رزق السعادة والطُمأنينة وراحة الضمير .

نحن جميعاً زوجات متساويات فى الحقوق والواجبات ، وموقفنا نحو زوجنا واحد . ومع ذلك فقد اختلفت طبائعنا ، وتباينت أهواؤنا ، وإن اتفقنا جميعا فى الظاهر على وحدة الشعور نحو زوجنا . لقد قلت إننا نتساوى فى حبه وإجلاله ، وأرجو أن أكون مصيبة فى قولى . والاّ فويل للمخلوق من المخلوق ، و ياللشقاء زوجنا بنا !

١٠

ضاق صدرى بما رأيت من أترابى اللواتى وصفت طبائعهن فيما سبق ، و يظهر أن تلك الطبائع بدت على أوضح صورة فى أثناء

مرض زوجنا. فتربى الغيورة تمادت فى غيرتها، وتربى النهمة الأكول أسرفت فى معالجة معدتها، وبالغت فى إظهار انانيّتها. وهكذا اخذت كل ترب تطلق لطبعها العِنان.

وأظن أن مزاجى صار حاداً فى هذه الفترة، فلم أُطِق السكوتَ والتجمّل بالصبر. فأسمعتهن ما لا يسرّهن. وعندئذ توسطت تلك الترب العاقلة الرزينة بيننا، وأخذتنى جانبا وشرعت تُخفف الخطب على قائلة: ليس هناك ما يدعوك الى التبرّم، وأنت مَنْ عُرِفت سَعةَ صَدر و بعدَ نظر، وحسنَ كياسة. فقلت لها: أليس يؤلمك كما يؤلمنى أن ترَىْ كلّ زوجة تُمعن فى شهوتها دون اعتبار مصلحة المجموع؟ ألسنا هنا متكاتفات متضافرات على تحقيق سعادة الأسرة بكاملها؟ ألا يجب على الفرد أن يضحّى من مطامعه فى سبيل تحقيق الوحدة والانسجام والسرور للجميع؟ قالت: ولـكنك تعلمين أن الطبائع فى المخلوقات هى من صنع الخالق، وليس للمخلوق حرية تكوين طبائعه. ومن جهة أُخرى من ذا الذى تصفو مشاربُه؟ ومن ذا الذى يُقرّ بعيوبه؟ وأغلب الظن أن أترابك يرون فيك ما ترَيْنَ فيهن. ولو سألت إحداهن عن رأيها فيك لوجدتْ مجالا للقول ذا سعة كما تجدين. قلت لها:

إننى لا أدعى الكمال لنفسى ، ولا أُبرئها من مستقبح الطبائع ، وأنا مستعدة أن أسمع رأى غيرى فىّ ، وأن أروّض نفسى على ما يشتهيه إن كان فى هذه الرياضة ما يُحقق السعادة لجميع الأسرة . وأنا أحكمك فى أمرنا وأطلق لك حق الفصل فيما يزعمون . قالت : أشهد إنى لأرى فيك الاعتدال والحصافة والنبل ، ولستِ فى حاجة إلى أن تحكمينى ، فليس هناك موجب لتكوين قضية يحكم فيها قاض . قلت : إنك تتكلمين مستوحيةً صفاتكِ وسجاياكِ ، وما أرى النعوت التى خلعْتِها علىّ إلا نعوتاً لك أنت . فدعينا من تبادل المدح ولنشترك معا فى النظر فى معالجة هذه الطبائع ، عسانا نصل الى تحقيق الوئام والتعاون على أحسن حال . وأنت يَعنيك هذا الامر كما يعنينى فلستِ بغريبة عنّا ، ولست بقادرة على أن تنفضى يدكِ مما يجرى بيننا . و إذا وفّقنا إلى الوصول إلى علاج حاسم فسينالك سهْمك من السعادة التى ننشُدُها ، وأنت بعدُ مسئولة عن تحقيق السعادة للأسرة بكاملها لأنك إحدى أفرادها العاقلات ، ومسئولية العاقل فوق مسئولية الجاهل . قالت : نِعْمَ ما تقولين . فهاتى رأيك . قلت : لا أُريد أن أعرِض عليك رأياً ، و إنما أريد أن

أحاورك رجاء أن نصل معا إلى نتيجة فاصلة / ألست ترَيْن أن جميع الطبائع ناتجة عن طبيعة الحياة التى يحياها الخَلق. فالحسد مثلا ناتج عن حرمان الحاسد من النعمة التى يتمتع بها المحسود، والكذب ناتج عن حرمان الكاذب من الوسائل التى تُبلغه ما يريد. والنفاق ناتج عن خوف المنافق من سطوة مَنْ يُنافق. والشره ناتج عن خوف الشَرِه من فوات ما يشتهيه من طعام أو شراب. والخيانة ناتجة عن فقدان التساوى بين الناس، واستئثار بعضهم بالسلطان دون بعض، ورغبةِ الخائن فى تحدّى تلك السلطة والقضاء عليها أو مخادعتها مهما كلفه الأمر. وأستطيع أن أسرد عليك سائر العيوب والطبائع، وأن أُثبت لك أنها ناتجة جميعها عن اختلال فى النظام، أو طغيان فى الحكم أو استبداد بالرزق، او استئثار بالخيرات / فقالت: أتريدين أن تزعُمى أن من اليسير محوَ الطمع والظلم والأَثرة والفساد وما إلى ذلك من العالم؟ أتريدين أن تفعلى أنت، أنت نفسك ما عجز أحكم الحكماء عن فعله. قلتُ أنت تتناولين البحثَ من قاعدة الهرم فتتناولين العالم أجمع. وأنا أُحب أن أبدأ من رأس الهرم فأتناول هذه الاسرة التى تخضع لمزاج واحد و بيئة واحدة، وحياة

واحدة . ولست أقصد أن أظهرَ لك بمظهر الأناني الذي لا يُعنيه من المخلوقات سوى بضعة أفراد ، ولكني أريد أولاً أن نبدأ من نقطة ثم نتوسّع إلى أن نبلغ قاعدة الهرم . وثانياً ليس ما يمنع المخلوقات جميعاً أن تنظر في حياتها على النحو الذي ننظر نحن فيه ، وإن كان هناك رأي صالح أو فكرة نبيلة فليس مايمنع انتشارها بين الناس جميعاً . قالت : إني أعترف لك بحسن القصد ، ونبلِ الغرض ولا أُريد من مساجلتي إياك مقاومةً لآرائك . ولكني أسألك في أيّ أسرة تحققت مُثلك هذه . فلست أعرف بيئة خلت من أثرٍ من آثار الطبائع البشرية ، أو لون من ألوان المساوئ الاجتماعية . ولو كان مجال تحقيق المثل العليا يسيراً لوجب أن نرى نتائجَه في بيئة من بيئات الخلق في قديم أو حديث . ومن جهة ثانية يتراءى لي أنك أخفقت في تطبيق مبادئك في أسرة صغيرة قليلة الأعضاء كأُسرتنا هذه . قلت : أفهم منك أنك متفقةٌ معي على علاج المبادىء التي ذكرتها ، وأنك مختلفة معي في تطبيقها . فإن كان الأمر كذلك فإني أعدك أن أبذل جميع قواي في تنفيذ هذه المبادىء بنفسي ، وفي حمل من يلوذ بي على تطبيقها ، وفي إقناع من لا يشايعني بصحتها .

وناصحا ومرشدا فى أثناء حياتى الجديدة . قد أكون مسرفة فى حسن الظن ، وقد أكون مبالغة فى اعتدادى بمواهبى وكفايتى . وقد تشكين أنت فى إمكان تحقيق مبادئى ، ولكنى أعتقد أنك واثقة بسموّ هذه المبادىء ، وبرغبتى الصادقة فى تحقيقها ، ليس لمصلحتى ولكن لمصلحة المجموع . قالتْ : إنى أؤازرك فى كل ماتقصدين منه تحقيق سعادة المجموع ، وحبّى لك يمنعنى من أن أحول بينك وبين تجربة قد تُشقيك أو تُرديك . وما دمت توجبين علىّ حق النصح والإرشاد فإنى أبادر بأسداء نُصحى إليك بأن تتريّثى فيما أنتِ قادمة عليه ، وأن تستعينى بالرفق والتؤدة كى لا تفقدى عقلَك وأملَك فى وقت واحد .

وما كاد ينقضى هذا الحديث حتى سمعت تربى الغيور تصيح قائلة : كفا كما استمتاعاً بالراحة والسمر ، ونحن نؤدى عنكما واجباتكما . هيا أقبلا فليس الهربُ وسيلةً صالحة لتجنب المسئولية . فابتسمت تربى ابتسامة بيّنة المدلول وقالت : هيا فقد بدأ العمل ! ولا أُريد أن أكلفك سوى أمر واحد ، وهو أن تكونى لى عوناً .

١١

منذ اليوم الذى صممت فيه على تنفيذ مبادئى التى رسمتها لمعالجة أخلاق أترابى وأنا فى جهاد عنيف معهن ، فقد أخذن يُظهرن عداوتهن لى بلا ترفق ، وكأن عداوتهن كانت نائمة فأيقظتها بيدى . ومن أغرب ما بلوت من أخلاقهن أنهن اتّهمننى بما أظهرت من عيوبهن . فكنت إذا قلت للحسودة : مالك تنفسين علىّ حبّ زوجى لى وحبِّى له ، وأنتِ تعلمين أنى ما تكلفت الحيلولة بين قلبه وقلبك ، بل ليس فى مقدور إنسان أن يحول بين قلبين . تقول لى : أنت الحسودة . وحسدك هو الذى صوّر لك هذه الآفة فرميتنى بها . وكنتُ إذا قلت للأكولة : إن الإسراف فى الأكل شرهٌ وخيم العواقب ، وأنت فى غنى عنه ما دمنا جميعاً ممتعين بنعم الله على السواء . قالت : والله ماعرفت النهَمَ إلا فيك ، وما عرفت وصفه إلّا منك وإذا قلت للمنافقة : مالك وللمواربة والرياء والنفاق ، وأنت تعلمين أن ظاهرنا كباطننا ، وباطننا كظاهرنا ؟ تقول لى : إنك لترميننى بدائك ، وتتسترين بالصراحة والإخلاص كى لا ينكشف أمرُك . وإذا قلت للكاذبة : ليس ما يحملك

على انتحال الكذب ، لأنك بعيدة عن المؤاخذة ، إن عثرت أو أخطأت ، ولا يمكن أن تسترى ذنوبك بالأكاذيب ، قالت : على لسانك نبت الكذب ، وما أعرف أنى زللت حتى أستر زَلَّتى بالكذب .

ويعلم الله كم حاولت أن أترفق بأترابى ، وأن أُبالغ فى مرضاتهن وأن أصِفَ عيوبهن ألطف وصف . ولكن أنى للرفق أن يُصيب وقد أخطأ النصح ، وذَلَّ الإخلاص عند هؤلاء الأتراب ؟ .

كنت أتوهم أنهن يشعرن بالبلسم الذى أضعه على جروحهن ، فإذا هنّ يرين ذلك البلسمَ فلفلا تُحشى به جروحهن .

ولما رأين مضاء عزمى ، وقوة تصميمى على ملاحقتهن ، غيرَ آبهة بما يقلن ، تذرعن بشر الوسائل فى مقاومتى ؛ فعقدن بينهن حلفاً شططن فيه أى شطط ، فتعاهدن على مخالفة رأيى فى كل ما أقول سواء أحقاً كان أم باطلا ؛ فإذا جاء وقت الطعام وقلت لهنّ : تفضلن للطعام فقد حان وقته ؛ قلن مستهزئات : يا للشره ! لقد صوّر لها شرهُها أن الزمن أسرع فى خطاه ، وما بعد هذا الشره شره . وإذا قلت لهن : الهواء بارد فالزمن مأواكنّ ، ولا تتعرضن لشرّه ، قلن : كذبتِ وأردْتِ أن تستأثرى بالهواء العليل

دوننا . وتعاهدن على أن يسخّفن آرائى ، و يبطلن أقوالى كى أفقد الثقة بنفسى . فإذا قلت لهن : أرى الصحة بادية على وجه زوجنا اليوم ، قلن لى : إنك مغرورة تدعين ما لا تعرفين . وتعاهدن على أن يُفسدن ما بينى و بيْن زوجى بلا قصد ولا احتياط ، فإن قلت كلمة صدق حملنها إليه مؤوّلة شرّ تأويل . فقولى لهن : إن زوجنا بصحة جيدة حملنه له على أنه تهرّب مما يجب علىّ نحوه من خدمة وعناية .

على أن حلفهن علىّ وكيدهن لى لم يصرفانى عما عزمت عليه . ومازادنى عداؤهن إلا ثقة بنفسى ، و إيماناً بصحة مبادئى ، ووثوقاً بأنهن فى أشد الحاجة إلى من يُصلحهن . و إن أعجب لشىء فعَجبِي للفضيلة كيف تذكى الرذيلة بدلا من أن تحصرها وتقضى عليها ولعلّى متعجلة النتيجة كاملة ؛ فمن أول بوادر الانهزام فى صراع الفضيلة مع الرذيلة أن تنكشف الرذيلة وتظهر بكامل قواها ، ولا شك فى أن طبائعهن التى أخذت أعالجها ظهرت بكامل قوتها . ولو كنّ أظهرن الرضى والاستسلام فى أول النزاع لاعتقدت أنهن يبطنّ غير ما يُظهرن ، وأنهن يلتجئن إلى المواربة والنفاق ليأمنّ مقاومتى لهن وعندئذ ينتقلن من رذيلة إلى رذيلة ، بل ينتقلن

من رذيلة إلى رذائل ، ومن أجل ذلك ما أوهنّنى بمقاومتهن ، بل زدننى إيماناً وثقة وعزيمة : إن نفسى لتشعر بروعة الجهاد إلى جانب ما شعرت به من جلال المبادئ ؛ وما كان العنف ليزيد المبادئ الشريفة إلا قوة ومضاء ، وما كانت المقاومة لتزيد ذوى المبادئ إلا قوةَ احتمال ومناعة .

أرادت تربى العاقلة أن تتوسط بينى و بين سائر أترابى حين رأت الخصومة تزداد قوّة يوماً فيوماً ؛ فجاءتنى تقول : منذ أخذت على نفسك أن تعالجى طبائع غيرك وأنت تبلين ضروب المِحَن والأهوال ، ولم يُكسبك عملك إلا صريحَ العداوة وعقدَ المحالفات ، ولقد كنتِ من قبل فى غنى عن هذا كله ، فكفى عن مسعاك والزمى نفسَك ، و إن شئت أن تنشرى الفضيلة وتقمعى الرذيلة ، فليكن ذلك بظهورك للمخلوقات متحلّية بالفضيلة فيروها بك حيَّة نشيطة ، بدلاً من أن يَرَوْها فى صورة أصوات جوفاء جامدة ، و بذلك تأمنين الشرّ والنزاع وتكسبين العافية . قلت لها : أترين أن العجز عافية ، والاستسلام نجاح ، والاخفاق توفيق ؟ فأنت أيتها العزيزة بين أمرين : إما أنك تؤمنين بصحة مبادئى ، و إما أنك لا تؤمنين . فإن كنت مؤمنة فمثلك من لا يؤثر السلامة والعافية

على الاستسلام والاستخذاء . وإن كنت غير مؤمنة فقولى لى انى ضالة . فقالت : لا أظنك تنكرين أنك أثرت كوامن البغض والعداوة فى نفوس أترابك ، وأنك بعملك هذا أشعلت الخصومة وأذكيت الشرّ ، وقد كنتِ من قبل فى حِلٍّ من هذا ، أفما ترين الآن أنك أفسدت الحياة من حيث أردتِ الصلاح ، وأسأت من حيث طلبت الصواب ، وغويت من حيث التمست الرشد ؟ إنك لم تُعيني الفضيلةَ بل أعنت الرذيلة ، ولم تقوّى المبادئ الصالحة بل عززت المبادئ الطالحة . فقلت لها : إنك تحكمين بظاهر الأمر ، ولو كنت تنعمين النظر فيما ترينْ لتبيِّن لك أننى لم أخلق جديداً ولم أبعث ميتاً ، وإنما كشفت مستوراً وأظهرت مخبوءاً . فقد كانت علاقاتنا فى أسرتنا تقوم فى ظاهر الأمر على المحبة والتفاهم ، وفى الباطن على المداهنة والمراءاة والمخادعة ، فأصبحت اليوم تقوم فى ظاهر الأمر وباطنه على أمر واحد هو الصراحة والصدق . وهذا غنم لا غرم كما توهّمت ، ثم إن دعوتى لإصلاحهنّ أوقفتهنّ على حقيقة طبائعهن ، وقد كنّ إما مخدوعات بأنفسهن وإما مكابرات ؛ والآن ظهر لهن من يريهنّ طبائعهن على حقائقها ، سواء أرضين أم لم يرضين ، ولا بد يوماً من أن يرينْ

صدق تصويرى طبائعهن و إخلاصى لهن ، وأن يرعوين عن ضلالهن ، ولو لم أكاشفهن لظللن يعمهْن فى غوايتهن . وهـــذا ولا شك غنم لا غرم ثم إن موقفهن منى وخصومتهن لى جعلا الفضيلة والرذيلة متقابلتين وجهاً لوجه . فهما الآن فى صراع عنيف، وإن كنتِ مؤمنة بمبادئى – كما قلتِ – فلا بُدَّ أن تشهدى بعينيك ظهور الأولى على الثانية ، عاجلاً أو آجلاً ، ويكون عملى حينئذ قد عجّل انتصار الحق على الباطل . ولو لم أفعل ذلك لتأجل هذا الانتصارُ حيناً آخر من الدهر . وليس ألذّ للنفس من أن تشهد صرع الرذيلة بأم عينيها . وهذا ولا شك غنم لا غرم .

فأنت ترين إذن أنى لم أُخفق فى مبادئى ، ولم أُعن الرذيلة على الظهور كما تراءى لك فى بدء الأمر . فقالت : أشهد أنك لمرزوقة العَزم والصلابة والإيمان . فقلت لها . أعينينى بنصحك ، و بصرينى بعيوبى فذلك أخلق أن يعجل لى التوفيق . فأسرعتْ إلىّ وقبَّلتْ رأسى قائلة : منك النصح ، و بغيرك العيوب ، ولك التوفيق . فزادنى كلامُها ثقة بنفسى » وإيماناً بمبادئى ، واستبشاراً بالظفر .

١٢

بعد أن أشرف زوجنا على البُرءَ من مرضه ، ومكث أياماً يستجمع قواه ونشاطه ، إذ به ينتكس فجأة ويعاوده المرض بصورة أشد فيلتزم مأواه فى حالة صراع شديد مع آلامه . كان جسمُه فى هذه المرة أقلَّ مقاومةً للمرض ، وبدت عليه مظاهرُ الضعف والانحلال ، فذهب ذلك اللون القرمزى من عرفه ، وحلَّ محلَّهُ لون أسمر أغبر ، وذهب الإشعاع الذى كان يتدفق من عينيه ، وعاد النشاط الذى كان يبدو فى حركاته سكونا .

وكنا حين ندخل عليه ونراه فى مرضه نُعانى الألم المُبَرِّح ، وتتقطع أفئدتنا عليه ، ويغشانا حزن شديد . كنتُ وزوجاته نعرض عليه خدماتنا ونلح عليه فى أن لا يتردّد فى تكليفنا إسعافه وتقديم ما يحتاج إليه . ولا شك أنه كان يلمح فى أصواتنا الإشفاق والإخلاص ، فكان لا يتمالك أحياناً من إظهار ألمه ، ويسألنا أن نقدم له ما يخفف آلامه . وما كان ما نقدمه له من طعام وشراب ودواء بموصله إلى ما يريد . إن الأصحاء الذين يُشرفون على معالجة المرضى يستطيعون أن يفعلوا كل شيء فى

سبيل راحتهم ، إلّا شيئاً واحداً هو ردّ الصحة المفقودة ، والعافية المسلوبة . ويعلم الله أنى كنت فى حال لو أستطيع معها أن أشاركه فى صحتى وعافيتى لما تأخرت . وكل ما يملكه المخلوق يمكن أن يُعار عدا الصحة فإنها لا تعار ، ولا تنتقل من شخص إلى آخر .

كان زوجنا إذا اشتدّ ألمه ، وشعر بالضعف يسرى فى دمه ، يتمنّى لو أنه يستطيع أن يخرج إلى الساحة ليستنشق الهواء كما كان يفعل فى السابق ، ذلك الهواء الرخيص المبتذل الذى كنّا نعبّ منه حتى نملّه . وآعجبا للمريض إنه يرى الصحة أعز شىء عنده فى حالة مرضه . فإذا ما لبس ثوب العافية وعاد إلى حياته المألوفة ، غرق فى لجة النسيان ولم يفطن لقيمة الصحة ، حتى الأعمال العادية التى يتبرّم بها السليم فى كثير من الأحيان يتمنى وهو مريض أن يعود إليها مُؤْلِياً على نفسه ألاَّ يتبرم بها . والصحةُ لا قيمة لها فى نظر السليم ، أمَّا المريض فيراها أغلى ما يمكن المخلوق أن يملكه فى حياته . ولو كان المخلوق يقدر الصحة فى حالة الصحة لحرص عليها وسعى لدوامها . ولكنه للأسف تغمره فى حال صحته مشاغل الحياة بله سخائف الحياة .

ظل زوجنا العزيز يعانى تباريح المرض أسبوعا كاملا أسلم فى نهايته روحه لباريها . ويل لى من ذكرى تلك الساعة التى رأيته فيها فى صراع عنيف مع الموت . كم كنت أتمنّى لو سبقته إلى القبر وسلِمت من رؤيته على تلك الحالة . وفى أواخر ساعات حياته رأيته وكأنه ألقى سلاحه وكفّ عن الصراع ، إذ تبين له أن خصمه أقوى من أن يقهر ، وأشدُّ من أن يُغلب ، فبدت على وجهه صُفرة الموت ، وتراخت أطرافه ، وهدأت حركته ، وجمد الدم فى عروقه .

ما كنا نستطيع أن نحادثه فى تلك الساعات إذ كان لسانه معقوداً وفمه مغلقاً ، فى أكثر الأوقات . ولكنا كنا نلمح فى وجهه أثر الصراع العنيف الذى يبدو على المستميت فى القتال ، وأغلب الظن أن تلك الساعات كانت ساعات صراع بينه و بين فريقين من الأرواح : الفريق الأول أرواح طاهرة صالحة رفيقة مؤنسة مؤمنة ، كانت تتحدث إليه فى خفية عنّا ، داعية إياه إلى التجلّد والصبر ، والفريق الثانى أرواح شريرة قاسية موحشة ، تنكّل به أشد تنكيل ، وتُدخل الرعب فى قلبه . وأرى أن الفريق الأول هو حسناته تتزيّا بزى الملائكة الأبرار ، والفريق

الثانى سيئاته التى كانت تتزيا بزىّ الشياطين القساة. ولا بد أن يكون الفريقان قد التحما مراراً متصاولين متبارزين إلى أن جاء المبعوث من الله فانتزع روحَه من كلا الفريقين، ونقلها إلى حيث قدّر لها أن تنقل.

وما أن أسلم زوجُنا روحَه حتى هرعنا إليه وانكببنا عليه نذرف الدموع مترحّمات متوجّعات. كنا نبكى وننتحب ما شاء لنا البكاء والنحيب. ولكننا لم ننتفع بما ذرفنا من دموع. ورأينا أن التجمّل بالصبر هو آخر سلاح المفجوع، فنقلنا زوجنا من مأواه إلى مثواه. وبعد أن عدنا إلى مستقرّنا عاودنا التوجع والتفجّع حتى كدنا نشعر أن نفوسنا تحاول أن تجد لها مخرجاً من أجسامنا، ويا ليتها خرجت. واعجباً لتلك القوى وذلك البأس وذلك الزَهْو أين ذهبت! هل يفطن المخلوق فى أثناء حياته إلى أن جميع ما يفتخر به من زَهْو وقوة وسلطان، وما يُزهى به من ملك وجاه، وما يعتزّ به من أصحاب وأحباب، إن ذلك جميعه لا يغنيه فى ساعة ما فتيلا، وإن جميع ذلك يعود فى ساعةٍ ما إلى العدم. إنّ ما يفتخر ويعتز ويُزهى به المخلوق يسقط معه، كما يسقط الريش الواحدة تلو الأخرى، فيعود كما خلق حفنة من

تراب تذوب كما يذوب الملح مع تعاقب الأيام . وإنى إذ أطلق لفكرى التأمل فى هذه النتيجة التى لا مناص منها أعجب للمخلوق كيف ينسى تلك الساعة الرهيبة ، فيمعن فى التجنى والإسراف والزهو والكبر أعجب للمخلوق كيف ينسى وهو يذكر كل يوم بتلك الساعة الرهيبة بما يرى من أموات ، وما يسمع من أصوات ناعيات . إنه لو فكر فى حالهِ التى سيصير إليها لما ظلم ، ولا أساء ، ولا خدع ، ولا نافق ، ولا عرف سوءا فى حياته قط . ولو تذكر كلُّ مخلوق تلك الساعة لكان العالم أحسن حالاً ، وأنعم بالا ، وأسمى خلقا ، وأشرف عملا ، وأحرص على سعادة المخلوقات . ولكنّ المخلوق ينسى مصيرَه .

أحقا إن ذلك الزوج الصالح ، وذلك الجسم القوىّ المتين ، وتلك المزايا العالية ستصبح بعد حين حفنة من تراب ؟ أجل إنه صائر إليها لا محالة ، ولكن صفاته وشمائله ستنجو بنفسها وتعود إلينا حيّة كما شاهدناها . إن الجسم المصنوع من المادة هو الذى يُصبح حفنة من تراب ، وأما الشمائل والأخلاق فتلك ليست من مادة ولن تُصبح حفنة من تراب . فنحن اليوم إذ نعود إلى مأوانا لا نقف له على أثر ، ولكنا نُحِسُّ إحساساً شديداً بتلك الروح

العظيمة وتلك السجايا النبيلة . ولو كانت مصنوعة من نفس المادة التى صُنع منها جسمه لما أحسسنا بها . ألا يجب علينا بعد هذا أن لا نسرف فى رعاية الجسم وتقديس المادة على حساب الروح والأخلاق والمبادىء . إن المخلوق الذى يحب المادة لا يلام على حبه إيّاها لأن جسمه صُنع منها ، والتجاذب بين الجسم والمادة لا يُمكن أن يُصرم ، ولكن أليس هناك فى الجسم وغير الجسم أشياء وأشياء ينبغى للمخلوق أن يُحِبّ من أجلها الروح والمبادىء ؟ ألا يجب عليه أن يؤثر الثانى على الأول لأن الأول إلى فناء والثانى إلى خلود ! ألا يجب عليه أن يعطى المادة ما تستحق دون إسراف وأن يعطى الروح ما تستحق دون قبض أو تقتير .

ليس لى من وراء هذه الأفكار ما ينفع ، ولكنى فى حقيقة الواقع أرى فيها عزاء لما أنا فيه من حزن مبرِّح . وإذ أعود إلى عقلى أستمد منه التجلد والصبر يزيد إيمانى بقوة الروح وقيم الفضائل وتزيد ثقتى بمبادئى التى ما برحت أفكر فى بثها بين أترابى .

١٣

اللهم قد جفّت دموعى لكثرة ما بكيت على ذلك الزوج الصالح — بلّ اللهُ ثراه — ولكن ما نفع البكاء ولا العويل. والذى نفسى بيده لو كان بكائى عليه يرده إلىّ لبكيت ثم بكيت إلى ما شاء الله. ولو كان حزنى وتوجّعى يردانه إلىّ لحزنت وتوجعت إلى ما شاء الله. بل لو كنت أستطيع أن أفديه بمهجتى لفعلت بلا تردد ولا توان. وإنى يوم تمنيت أن أمتحن بصحّتى ودمى وروحى لأثبت وفائى ما شططت ولا بالغت.

وافجيعتاه! لقد انهار عمود بيتنا، وحامى حمانا، وأسد عريننا، وأصبحنا نهبة لكل غاز. فمن يردّ عنا اليوم العادى والباغى؟ ومن يدفع عنا الشر والعُدوان؟ لقد أصبحت حياتنا بعد زوجنا أمرّ من العلقم. ولولا أن فى تمنّى الموت نكرانا لنعمة الخالق لتمنّيته. ولولا أن الانتحار ثورة طائشة على حكم الله لالتجأت إليه فى رضى واطمئنان.

إيه أيها الزوج الصالح! لقد عمرت مكرّم الخلق، محمود السجايا، مبرور الأعمال، متحليا بأجمل ما يتحلّى به مخلوق فى

هذه الحياة . وغادرتنا فغادرت وراءك حسرات مستقرات فى الأعماق ، وكلوماً بالغات ساكنات فى الحشايا والضلوع ، وجفوناً مقرّحات مغرقات بالدموع ، ونساء باكيات نائحات مالهن من نصير ، وأيامى ثاكلات نادبات مالهنّ من معيل .

اللهم إنا نعتصم بك لتقينا شرّ السخط على نعمتك التى أنعمتها علينا . اللهم اغفر لنا وارحمنا وجمّلنا بالصبر .

ما رزؤنا بهين حتى ننساه ، ومامصيبتنا بيسيرة حتى نتحملها . فإن زوجنا يتمثل لنا فى كل مانراه . فى الطعام وفى الشراب ، فى الأرض وفى الهواء ، فى المأوى وفى السـاحة ، فى السكون وفى الحركة ، فى الليل وفى النهار ، وفى كل وقت وفى كل مكان .

إنا نخرج اليوم فى الصباح نلتمس الطعام والشراب على غير هدى ، فواحدة تشرق وأخرى تغرب ، وهذه تمشى وتلك تجلس ولولا هذا السور الذى يحيط بمأوانا لانحل عقدنا ، وتشتت شملنا ولولا فضل من عقل ، و بقية من إيمان لحل بنا الهلاك .

كانت تربى العاقلة الرشيدة فى هذه الأيام السوداء أرجحنا عقلاً ، وأقلنا استسلامًا للأحزان وأحرصنا على جمع الشمل . فقد جمعتنا يوما وقالت : إننى أعلم ما وقع بينكن ولا أحسبكن بعد ما

أصابنا من فجيعة بعائدات إلى ما كنتن فيه . ونحن الآن نجابه خطر الغزو والعدوان ، فإن عدتن إلى ما كنتن فيه من خصام وخلاف فسيبْطُشُ بنا جميعاً دون رحمة ولا شفقة، و إن اعتصمتن بحبل المحبة والوفاق وقفتن متكاتفات ورددتن بوادر الاضمحلال. ونحن و إن كنا إناثا ضعيفات فإن الله معنا مادمنا مع أنفسنا ، فضعيفان مؤمنان متحدان أقوى من قوى باغ معتد . لأنا نستمد قوتنا من الاتحاد والحق ، و يستمد عدونا ضعفه من البغى والعدوان. ونحن إن وقفنا فى وجه العدوّ الباغى سواء أذكراً كان أم أنثى جسما أم روحاً فلا نقف إناثا فى وجه ذكر ولا ضعيفات فى وجه مسلح ، ولا أجساماً فى وجه جسم هائل ، و إنما نقف حقاً فى وجه باطل وقوة فى وجه بغى ، و إيماناً فى وجه كفر ، وخيراً فى وجه شر . فتماسكن وتكاتفن والله يحرسكن و يرعاكن .

كانت تربنا الرشيدة تتكلم وصوتها يدوّى فى آذننا كأنه ممزوج بصوت من الخالق . وما كادت تنتهى حتى فتحت فمى لأؤازرها فى دعوتها ، ولكنى ما كدت أنطق بكلمة حتى صاحت بى إحدى أترابى ممن تزعمن الحلف علىّ تقول : اصمتى فالكلمة لى . فتولانى الجزع خشية أن يبدر منها ما يفسد الدعوة الطيبة ،

ولكنى سمعت منها كلاما أدهشنى . قالت : أيتها الأخت العزيزة لقد تكلمت بإيمان و إخلاص عظيمين ؟ ولكنك أسأت الظن بنا ، وقدرت ما لم يدر فى حسابنا . أتظنينا من البَلَهِ بحيث نغفل عن حاضرنا ومستقبلنا . فأى مخلوق يلتجىء فى مثل هذه الحال إلى شقاق فمصيره التهلكة ، ليس لنفسه فحسب ولكن لنفسه ولغيره على السواء . وقامت ترب ثانية وقالت للسابقة : ليس والله الحاضر ولا المستقبل هو الذى يدعونا إلى الاتحاد والوفاق و إنما هو الماضى . وما كادت تنطق بهذه الكلمة حتى خنقتها العبرات وعجزت عن تتمة الكلام . وما رأيناها تبكى حتى هطلت دموعنا كالمطر يتساقط بعد انحباس . وكأن الصبر خاتم منع انصباب الدموع ففضه بكاؤها . وانهالت العبرات . وفى تلك اللحظة الرهيبة قامت كل واحدة إلى تربها التى بجانبها تكفكف عبراتها وتواسيها وتعزيها . وكان بجانبى تربى التى وصفتها بالحسد . والله لقد كانت أحدب علىّ من نفسى . فما كدت أراها مواسية حتى قمت إليها وقبلت عينيها وقلت لها سبق أن أسأت الظن فاغفرى لى سوء ظنى ، واعفى عنى . فقالت : أى سوء ظن وأى غفران تذكرين فوالله لقد كنا نرى فى عينيك الحب الخالص ، والعطف الصادق ،

والتضحية الغالية . فصاحت تربنا الرشيدة : لكنَّ لله ! لقد كنتن أفصح نطقاً ، وأبلغ عملا . ووالله إنكن لتثبتن أنكن أطيب منى قلباً ، وأوسع منى صدراً . وقد كنت أخشى أن تحل بنا الهزيمة بعد الحزن والألم . فكنت متجنية عليكن ، إذ تبين لى أن الألم جمع بين قلوبنا بعد أن طهرها مما شابها . فقلت أيتها العزيزة إنه لما يسوؤنى أن أراك تعتقدين أن الألم لا الحب هو الذى وحّد بين قلوبنا . حقاً إن الألم بليغ ونفاذ ، ولكن الحب أبلغ وأنفذ . ونحن وإن جمَّعنا الألم فى هذه اللحظة فسيجمّعنا الحب طوال العمر . إن الحزن يوحد الحزانى ، والحب يوحد المتحابات ، وحياة المخلوق تقوم على الحب لا على الحزن . فلنعش إذن متحدات متكاتفات على الحب دون الحزن . لقد كان زوجنا فى حياته سمط العقد وعمود البيت ، فلنحافظ على هذا الجمع بعد مماته ، ولنتعاون على بناء بيتنا من جديد . وقمت وقامت الأتراب ودخلنا مأوانا نلتمس الراحة فى هدوء الليل .

١٤

لله دنيا الحب ما أجملها وأقواها ، إنها جميلة لأنها تشيع الحنان والرحمة والتفاهم والإخاء ، وتبعث الرضى والسرور ، والبهجة والاطمئنان . وهى قوية لأنها قادرة على أن تصنع ما يُعجز جميع القوى .

إن الحب نور يملأ القلوب ويوحى إليها الطهر والوداعة والرفق والشفقة والحنو والحنان . إن الحب إذا دخل قلباً طهره من الجشع والحقد والبغض وكل رذيلة تتصل بالمخلوق . وإن الحب قوة نشيطة مسيرة إلى الخير والصلاح . إنَّ الحب إذا دخل قلباً قسمه مشاعاً للناس أجمعين ، وعوض عن كل جزء موهوب أجزاء مضاعفة . الحياة بلا حب عذاب دائم ، ونار محرقة ، ومصائب متواليات . والحياة بالحب نعيم دائم ، وسعادة مقيمة ، وبهجة عامة ، ومتعة لا نفاد لها

لقد كنت أعتقد أنى مقبلة على عمل يحتاج إلى براعة وحسن حيلة ، حين أخذت على عاتقى أن أعالج طبائع أترابى ، وكنت أقدر لكل داء دواء . فما أن أوينا إلى مضاجعنا فى مساء ذلك

اليوم الذى اجتمعنا فيه وتبادلنا المحبة والإخاء ، حتى أوت تلك السجايا إلى مقرها الأخير . ومنذ الصباح الذى أشرق علينا بعد ذلك الاجتماع ، ونحن نمتع بأهنأ حياة . ، وكأن الله أعاد خلقنا من جديد ، أو أعاد علينا قلوبنا بعد أن طهرها كل مطهر ، فلا حسد ولا حقد ، ولا خداع ولا كذب ولا رياء . أى قوة فى الوجود تستطيع أن تطهر النفوس من مطامعها ، وتغسلها من أوهامها ، وتؤلف بينها إيلافا لا يناله ثلم ولا صدع

وإن أعجب لشىء فعجبى لهذه المخلوقات ، التى لا تتوسل بالحب لتتغلب على ما ينشأ بينها من خلاف ونزاع وخصومات . فما من مشكلة تستطيع أن تثبت أمام الحب ، بل لا يمكن أن توجد مشكلة فى عالم الحب . فالحب والخلاف لا يجتمعان فى صعيد واحد . لقد اختبرت هذه الحقيقة بنفسى . فبعد أن كان بيتنا معرضاً للدمار والفناء بسبب تنازع الاهواء وتنافر الآراء ، وتشعب المطامع ، وتضارب الطبائع ، أخذ يقوم على أثبت أساس وأمتن قاعدة ، هو الحب . ليس فى الوجود ما يدعو إلى الاختلاف وليس فيه مايدعو إلى الطمع والجشع ، وليس فيه مايدعو إلى الظلم والطغيان . أليس الحبُّ وفيرا تنبته الأرض ، وتذروه

الرياح حيث نعلم ولا نعلم؟ أليس الماء من رحمة الله يرسله إلى الناس أجمعين بلا محاباة ولا تفرقة؟ أليس الهواء ملء السماء يناله من يريد؟ فعلام إذن الخلاف والطمع والاستبداد؟ ثم أليس للمعدة حد لن تتعداه؟ أليس للجسم طاقة محدودة لا سبيل إلى توسيعها؟ فعلام إذن الجشع والاحتراب والتنافس؟ لقد كنا فيما سبق إن لمحنا حبة سمينة أو قطعة من حلواء أو هنة من خضرة رطبة، تثور فى نفوسنا ثائرة الطمع والأثرة، وتهجم كل منا على تلك الطعمة لتستأثر بها دون صديقاتها. أجل كنا نختلف فى نظرنا للطعام فمنا من تعدو بسرعة الريح، ومنا من تتئد فى سيرها، ومنا من تضرب بالمناكب، ومنا من تترفق، ومنا من تتمنى أن يسقط الطعم بين يديها. وكل ذلك بدافع الطمع والأثرة. ولو كنا نترك كل واحدة تظفر بما تريد من طعام أو شراب لبلغت الكفاية وبرئت من الطمع والمزاحمة. ونحن جميعاً نعلم أن الرزق موفور لجميع المخلوقات، وأن الموت جوعاً من أندر ما يقع فى الوجود. ومع ذلك نتهافت على السلب والنهب، وتخليص اللقمة من فم الغير. كنا نعيش مدفوعات بشهواتنا الجسمية، وأطماعنا المادية، وما حكمنا العقل والقلب فى جميع هذه الحالات. نعم قد

يعجز الضعيف عن الوصول إلى ما يريد ، وقد يقعد المرض المخلوق عن تحصيل قوته ، وقد يشغل المعيل بعياله عن توفير أسباب الرزق لهم . فهذه حالات لو حكمنا فيها العقل والقلب لما كان يجب أن توجد . فكل مخلوق معرض للكبر والمرض والمشغلة ، ولو كنا نحب لغيرنا ما نحبه لأنفسنا ونحب لأنفسنا ما نحبه لغيرنا لساعدنا الضعيف حتى يقوى ، والمريض حتى يبرأ ، والمعيل حتى يتفرغ لنفسه .

ولكن الخلق محرومون من عقولهم وقلوبهم ، وكأنهم لا يعيشون إلا بمعدهم وأجسامهم . وعند ما يعرض لهم ما يغذى أجسامهم يضيعون عقولهم وقلوبهم . ونحن اليوم قد برئنا من هذا جميعه بعد أن أخذنا نحيا حياة جديدة ، قائمة على الحب الخالص ، و بعد أن رأينا فى وفاة زوجنا مصير ذلك الجسم الذى نبالغ فى الاحتفال به ، وما هو إلا حفنة من تراب . نحن اليوم نسير جميعاً جنباً إلى جنب ، فإن رأينا حبة سمينة دفعت كل منا صاحبتها إليها دفعاً ، وما تتناولها إحدانا إلا على استحياء . فحمداً للحب على ما صنع ، وحمداً لله على ما أنعم .

١٥

مضى على تربى الرشيدة أيام وهى ملتزمة المحضن مترخمة على بيضها ، وكم نحاول أن نغريها بالخروج معنا فلا تفعل . لقد كانت فى الأيام الأولى تتناول الحب الذى ننقله إليها ، أما اليوم فقد امتنعت عن تناوله .

ليس من الحق أن أعذلها ولكنى أشعر أنها انحرفت عن مألوف عادتها ، فهى فى غالب الوقت صامتة لا تكاد تنبس بكلمة . وهى فى حالة اضطراب يثيرها و يهيجها أتفه الأمور فاذا ألححنا عليها بالطعام نفرت عنا وعبست ، و إن دنونا منها نستفسر عن حالها تبرمت وتكدَّرت . و إن مس جسمها شىء هاجت وماجت .

دنوت منها أمس وقد ضَمَرَ جسمها ، وغارت عيناها ، واصفرّت وجنتاها ، أتوسل إليها أن تشفق على نفسها . قلت لها : يا حبيبتى ليس ما يوجب بقاءك فى المأوى محرومة من الطعام والشراب . لست ألتمس منك مشاركتنا فى التنزّه والرياضة ، ولكنى ألح عليك أن تتناولى الطعام والشراب فى أوقاتهما . إنك يا حبيبتى تَجْهدين جسمك جهداً يؤذيك . فقالت لى : أيتها العزيزة ،

لا تقسى علىّ باللوم . فلو كنتِ مكانى لفعلتِ ما أفعل . وأشاحت بوجهها . فانتقلت من مكانى إلى حيث أرى وجهها وقلت لها وأنا أحدّق إلى عينيها الغائرتين : يا حبيبتى ، قد يكون ما تقولين وقد لا يكون . فلست أُجادلك ، ولكنى أدعوك بل أرجوك أن تترفقى بنفسك . تعالَىْ معى لنتناول الغداء معاً . تعالى وكلى مرة واحدة فى اليوم . فرفعت إلىّ عينيها الذابلتين وقالت : أخشى أن يُضْجرنى إلحاحُك فأتفوّه بما يكدرك ويكدرنى . إفهمى ما أقول : لستُ أملك حرية العمل . فقلت : يا أختى الحبيبة ، أنت مثال العقل والكمال ، وقد كنا نستمد منك الحكمة والرشاد والنصح وما تبرمت بنا ، فما الذى غيّرك الآن ؟ قالت : أو ما ترين ما أنا عليه ؟ قلت بلى ، قالت : أتحتاجين إلى شرح ؟ قلت : إن ما أراه لا يبرّر إمساكك عن الطعام ، وانصرافك عن نفسك كل هذا الانصراف . قالت : أنت تَرَيْن ظاهر حالى ولا تَرَيْن باطنه . قلت باسمة : أَوَ تَرَيْن أنت باطن حالك ؟ قالت : يا أختى ، إنى لا أرى باطن حالى ولكنى أشعر بأن قواى جميعها منصرفة عن نفسى انصرافاً لا خيرة لى فيه . قلت : أو ما تشعرين بحاجة إلى ما يحفظ عليك نفسك من طعام أو شراب ؟ قالت : إنى لا أشعر

بنفسى هذه حتى أشعر بما تطلبه من غذاء ، قلت : عجباً ، أما تشعرين بالحياة تدب فى جسمك ؟ قالت : انظرى يا أختى . ورفعت كنفيها عما تحتها ، فنظرت وقلت : هُم الأجنة أليس كذلك ؟ إنى ما رأى جديداً . قالت : أدنى قليلا . فدنوت ، فقالت : ألق بسمعك برفق . فألقيت بسمعى ، وإذا حركة خفيفة تدبّ فى داخل الأجنَّة . قلت : أختى ما الذى أسمع ؟ قالت : روحى تخفق فى الداخل . قلت : يالله ! روحك ! أوتنتقل الروح من مكان إلى آخر ؟ فابتسمت وقالت : هو ما تسمعين ، وسترين بعينيك عمّا قريب مصداق ما تسمعين قلت : عجّلى القول وأزيلى الفزع من نفسى . قالت : لا تفزعى يا حبيبتى ، إن الله الذى أودع فينا سرّ الحياة هو الذى ينقل هذا السرّ إلى هذه الأجنّة ، وهو الذى يبعثها حيةً تدبُّ على الأرض كما ندبّ ! قلت : أو ما يخفيك انتقال روحك إلى غيرك ؟ قالت : يخيفنى ؟ إنه يبعث فىّ شعوراً لا أستطيع أن أصفه لك مهما أوتيت من بيان . إنى أشعر أنى أسعد مخلوقة على وجه الأرض . إن حبى للحياة أُفرغ فى هذه الأجنّة ، ولـكنه سيعود إلىّ مضاعفاً حين أرى هذه الأجنّة تدب حولى . قلت : أتريدين أن تقولى إن

هذه الأجنّة قطعة من نفسك ؟ قالت : أقصد أن أقول إنها أرواح منتزعة من روحى ، فأنا الآن أشهد انتقال روحى إلى جيل قادم ، بل إلى أجيال متعاقبة على مر السنين . . فأسرعت إلى يدها وأكببت عليها أغسلها بدموع الفرح ، اشتراكاً معها ببهجتها . فانحنت ورفعت رأسى وقالت : يا أختى ، أشكر لك مشاركتك إياى فى فرحى . فقلت لها : أيتها الحبيبة الشكر لك فأنت التى حلَّت بك نعمةُ الله ، وأنت التى ستدخلين الفرح إلى قلوبنا وتعوّضين علينا ما فات . . . فقالت : يا أختى ، ما سيأتى لا يعوض ما فات . وما كان للمستقبل أن يعوض الماضى .

وفيما نحن فى الحديث إذا بها تنتفض فجأة وتقف كالحيوان المفترس حين يلمح فريسته . فزعت لمنظرها وصحت : أختى مالك ؟ فقالت : أنظرى وراءك ، فنظرت وإذا وجه غريب يلوح من بعيد ، فقلت : يظهر أنه مخلوق ضعيف لا خطر له . قالت : وما يريد ؟ وانطلقت كالسهم نحو ذلك الوجه ، وريشها يضطرب اضطراباً شديداً . فلحقت بها . وما كاد ذلك الوجه يراها حتى توارى عن الأنظار . فهدّأت روعها ورجوتها أن تعود إلى مأواها . فقالت : لا أطيق أن أرى غريباً فى هذه الديار . .

فقلت : نحن نفديك بأرواحنا . قالت : إنك لا تستطيعين أن تدفعي الشر ، بل لا يستطيع كل من فى البيت أن يدفعه ، ولكنى أنا وحدى أستطيع أن أرد العادى مهما اشتدّ بأسه ، فإن الله يمدّنى بقوةٍ تستطيع أن تقف فى وجه كل عدو ، وإنْ كان بقوة النمر ، قلت : ولكنك ضعيفة نحيلة ، قالت : أخطأت ، إنى أقاوم مقاومة من يستمد القوة من الله ، وقوة الله لا تُقهر . ولم تَعُد إلى مأواها حتى تيقّنتْ أنها وأجنتها فى مأمن من كل شرّ فتعجبت لذلك الجسم النحيل الضئيل كيف دبّت فيه قوة ثور شرس فى لحظة واحدة ! وأردت أن أتيقن من ذلك الوجه الغريب ، فخرجت أبحث عنه وراء الجدار بعد أن تركت صديقتى رابضة فى مأواها تسهر على أجنتها بعينين كالجمرتين .

١٦

ولم ألبث طويلا فى البحث حتى اهتديت إلى ذلك الوجه الغريب ولشدّ ما دهشت حين رأيت مخلوقاً مثلنا ، نحيل الجسم ، منهوك القوى ، زائغ البصر ، ترتعد فرائصه ارتعاداً شديداً . انحنيت عليه برفق وقلت : مَنْ هذا ؟ فقال بصوت متقطّع :

طارئ غريب بائس ، فحملقت فى وجهه وإذا هو أنثى مثلنا فأخذت بيدها ، وسرت بها إلى الساحة . وما أبصرتنا الأترابُ حتى هرعنَ الينا وقلن ما الخبر فقلت : طارئ مسكين التجأ إلى مأوانا ، فلنبادر إلى إسعافه ؛ فذهبت ترب تحضر الماء ، وأخرى تحضر الحَبّ ، وجلست أنا بجانبها ، أُطَيِّب نفسها ، وأشدّ عزيمتها ، و بعد وقت قصير استعادت قواها واستطاعت أن تنبئنا عن حقيقة حالها . فقلت لها : أيتها الأخت العزيزة ، ما الذى دفعك إلى هذا المأوى . فقالت : كنت جائعة عطشى ، خائرة القوى فخرجت ألتمس ما يسد الرمق ، فجرّنى القدر السعيد إلى مأواكن ، وما كدت أراكن من وراء الجدار ، وألتمس منكن المعونة حتى رأيت فى عينى إحداكن شرًّا رعبنى ، فتستّرت وراء الجدار ، وما أطقت الكلام . قلت : أليس لك مأوى أيتها الأخت ؟ قالت : لى . قلت : ألست تجدين فيه الطعام والشراب ؟ قالت : ومن أين لنا الطعام والشراب ؟ قلت : الحَبُّ فى الأرض ؛ والماء كثير . قالت : فى غير مأوانا . نحن أسرة كبيرة ، كثيرة العيال ، رقيقة الحال ، نبحث عن الطعام فلا نكاد نصل إلى مايسد الرمق ، ونحن فوق هذا فى قتال دائم ، لا تكاد إحدانا تقع على حَبّة سمينة

أوهنة رطبة حتى تهجم عليها سائر الأسرة . فإن كانت قوية نشيطة شرسة فازت بنصيبها بعد عراك وفزع ، وإن كانت ضعيفة مسترخية ، انتزع نصيبها من فمها ، وطار إلى فمٍ آخر . قلت : أهذا دأبكن حياتكنَّ كلها ؟ قالت : نعم . إنى ما أعرف طعم النعمة حتى أصفها لك ، وإنما ذقت ألوان الحرمان والشقاء والفاقة ، وأستطيع أن أحدثك عنها أياماً طوالاً . فقالت إحدى أترابى : أليس عندكن زوج يعينكن على الرزق ، ويحميكن من المكروه ؟ فأجابت : عندنا زوج ، ولكنه زير نساء ، نهم أكول ، زوجاته كثيرات ؟ وعياله عديدون كثيرون ، وليس فى وسعه أن يدفع عنا ضيما أو ييسر لنا رزقاً . وماذا يفعل الذكر فى الأسرة الكبيرة التى تعد عشرين نفساً ؟ وقد عشت على هذا الحال منذ وعيت . وما أعرف كيف كانت تعيش الأسرة من قبل ، ولكنى أرجح أنها عاشت فى الماضى كما تعيش الآن ، ولو كان الفقر طارئا لوُجِد من يُعالجه أو يدفعه بسبيل من السبل ، ولكن الأسرة ألفت الضيق ورئمت المذلة ، وتعوّدت الشقاء . قالت ترب أخرى : ولِمَ لا تدعين أترابك إلى معالجة تلك الحالة ، وليس يعدم الساعى باباً من أبواب الفرج ؟ فقالت : إنهن مشغولات بالحسد والنفاق

والكذب والخداع ، وما يسلم يوم من شر يبيّت ، أو مكيدة تُنصب . فقالت ترب ثانية : أليس بينكن عاقلة رشيدة حازمة ، تسعى إلى إصلاح الحال ، وقطع دابر الشر ؟ فقالت : لو وجدت العاقلة لاستضعفت واستذلّت واستهدفت لضروب العذاب . قلت : أيتها الأخت ، صوت واحد يرتفع فى سبيل الإصلاح والخير ، يُحدث أثراً عميقاً فى النفوس ، وهو وإن لم ينتج تغييراً عاجلاً فلا شك أنه ينتج تغييراً آجلاً . قالت : أنتِ يا أختى تطلبين من يضحّى بنفسه فى سبيل غيره ، وقد عز بيننا من يضحّى . قلت : أو لست مؤمنة ؟ قالت : بلى . قلت : كونى أنت المضحية ، قالت : لو كان لى أقل رجاء فى الظفر لكنت من تريدين . ولكن الشرّ فى بيتنا بلغ حداً من الطغيان والعنف بحيث لن ينفع معه نصح ولا إرشاد . قلت : يجب أن يكون مع التضحية أمل وإيمان ، وإلا فمصيرها الإخفاق . قالت : وما دواء الجائع البائس ؟ إن فراغ المعدة فى نفسه شر لا يُقهر ، ولو تيسّر للأسرة ما يسد الرمق ، لصحّ أن تُنصح فتستنصح ، وأن ترشد فتسترشد . فقالت إحدى الأتراب : الحق ما تقولين ، فيجب أولا أن تشفى الأسرة من تباريح الجوع ، قبل أن تعالج نفوسها ، فقالت : وما السبيل

إلى ذلك ؟ قالت الترب : السبيل إلى ذلك واضح . انطلقن من المأوى ، واضربن فى الأرض . فقالت : ومن أين الخروج ؟ إن حول مأوانا جداراً لا يجتازه إلا المستميت . قلت : أو أنتن محجوزات محجوبات عن المخلوقات ؟ قالت : إننا فى سجن فيه قسوة المادة ، التى لا ترحم ولا تلين . قلت : إذن اجتمع عليكن السجن والفقر . قالت : والفساد والبغى . قلت : ولا يعيش هذان إلا بوجود ذينك ، وما رأيك فيمن يحمل إليكن الطعام ؟ قالت : ومن يبيع نفسه رخيصة . قلت : أو يهلك المحسنُ عندكن ؟ قالت : ما عرفنا المحسن حتى نميّزه من المسىء . قلت : ولكن فيك غير ذلك ، وإن كان أترابك مثلك فلن يسئن إلى المحسن ، ومع ذلك فنحن سنقذف إليهن الطعام من وراء الجدار ، ولسن نبغى منهن جميلا . قالت : لك الخيار فيما تفعلين ، على شريطة أولاً : أن أُعفى من مرافقتك ، وثانياً : أن أُجنّب اللوم بعد أن أنذرت . فقالت إحدى الأتراب : لنقنع بخلاص نفس بائسة ، ونحن بعد فى شغل شاغل . فقلت : أعدكن أن أؤدى واجبى على أحسن وجه ، فقالت إحدى الأتراب : وأنا معك وعلى بركة الله .

١٧

لم أوفق بعد تخليص ذات الوجه الغريب إلى تنفيذ ماعزمت عليه ، بسبب اشتغالى بتربى ذات الأجنّة . فقد عرفت السبيل إلى إرضائها ، وظفرت بثقتها . وقد أظهرتْ فى بدء الأمر ذعراً من ذات الوجه الغريب ما فتئت أعالجه إلى أن رضيت عنها ، واطمأنت اليها . وما أعرف أن عينى أحسّتا النوم لفرط تفكيرى بتلك الأسرة البائسة . وكيف لعينى مخلوق أن تغمضا ، وفى الوجود أسرة تعانى البؤس والشقاء ، وتبلو الفساد والشرّ . إن قلبى ليتصدّع حين أفكر بأن فريقاً من الخلق يتضوّر جوعًا ، وفى وسعى أن أساعده . إن سعادتى نقصت بمقدار ماسمعت عن شقاء تلك الأسرة . وكنت أحسبها كملت بعد ما وقع فى أسرتنا من الحُبّ والائتلاف ، وبعد ما مَنَّيْتُ به نفسى من مستقبل سعيد بخروج الأجنة إلينا . وكم حاولت أن أدفع الأرق عن عينىَّ بانتحال المعاذير ، وضرب الفروض . وكم قلت لنفسى : هبك لم تسمعى ماسمعت ، وهبك لم تصدقى ماقيل لك ، وهبك مارأيت ذلك الوجه الغريب . ولكننى سرعان ماتظهر لى الحيلة ، وأتبيّن

أنى أخدعُ نفسى ، فيعود إلىّ الأرق والحزن . وما وجدت مخرجاً سوى أن أحزم أمرى ، وأنفّذ خطتى . فجئت إلى إحدى أترابى فى الصباح ، وقلت لها : هيا أيتها العزيزة ، فلنحمل ما نقدر عليه من طعام ولنذهب مسرعتين لإسعاف تلك الأسرة . فقالت : لبيك . واسترشدنا بضيفتنا ، وذهبنا مثقلتين بالطعام ، وسرنا مجدّات . وكانت هذه أول مرة أخرج فيها من المأوى باختيارى لأؤدّى واجباً . سرنا نقطع المسافات البعيدة متجنبات المخاطر التى كانت تطل علينا من حين لآخر ، مهددةً بالهلاك . فرأينا فى طريقنا عمالقة جبارين ، يسيرون متكبّرين مختالين ، وكأن الدنيا تسير وفق رغبتهم ، وطوع إرادتهم . وما كنا ننال منهم إلا الشزرات الممزوجة بالكره والازدراء ، كأن الذى خلقهم غير الذى خلقنا . ولو كان فى وسع أحدهم أن يبطش بنا لما تأخر ، فقد كنا أحرص من أن نقترب منهم ، وأحذر من أن نأمن لهم . ومن أين لهؤلاء العمالقة أن يشعروا بمهمتنا ، ومن أين لهم أن يشعروا معنا ؟ أليس العمالقة قساة طغاة لا يسألون عما يفعلون ؟ ألسنا نحن المخلوقات ضعيفات لا يؤبه لنا ، ولا يسأل عن حالنا ، ولا يُقام لنا وزن فى الوجود ؟ أليس فى العملاق قدرة على البطش

دون شفقة ولا رحمة ؟ أليس فيه جبروت الطاغى المستبد .

ومع ذلك فقد بلغنا مأوى تلك الأسرة آمنات . وكان الله أعدل من أن يحول بيننا و بين ما نريد . وما إن أشرفنا على المأوى حتى تخلفت ضيفتنا ، وتسترت وراء شجرة ، وأشارت بيدها أن هناك ما تريدان . فسرنا حثيثاً ، ونظرنا من وراء الجدار . فإذا أمة من المخلوقات ، يكسوها البؤس ، و يهزلها الجوع ، و يُزرى بها الشقاء . دنونا من المأوى وسلمنا ، فما رأينا إلا عيوناً مفتحة ، تحتها أجسام ضامرة وسيقان نحيلة ، كأغصان الشجرة اليابسة فى فصل الخريف . أعدنا التحية فاستدارت حدقات فى تلك العيون أدخلت الرعب فى قلبينا ، وكادت تربى أن تبتعد ، فأخذت بيدها ، وقلت لها : لا تحجمى ولا تفزعى . وبادرت بقذف ما حملت من طعام إلى الأسرة من أعلى الجدار ، ثم أخذت حِمْل تربى وقذفت به أيضاً . فتزاحمت مخلوقات كئيبات شرسات تتخاطف الحَبَّ فى ذعر ونفار . فمنهن من تلتقف الطعام وتفر به إلى آخر الساحة . ومنهن من تلحق بالحاملة وتعمى عن أن ترى ما أمامها . ومنهن من تأكل بشره . ومنهن من تنتزع الطعام من غيرها ، ولا تكلف نفسها مؤونةَ الأخذ

بالفم . ومنهن من تجفل حيناً ثم تهجم بلا إجفال . وقفنا نشاهد ذلك المنظر ونشوة الإحسان تسرى فى أجسامنا وتملؤنا سروراً .

أما الزوج فكان يظهر مهدود القوى ، زائغ البصر مضطرباً ينتقل من مكان إلى آخر ، فى غير وعى ؛ تارة يتناول الطعام ، وتارة يهرع إلى زوجاته يشاركهن فى طعامهن ، وتارة يحدّق إلينا دهشاً ، وتارة يقفز إلى باب المأوى . و بعد أن فرغنا من قذف جميع ما وسعنا حمله، رفعت صوتى أدعو الزوجات إلى الدنوّ منى . فصاح بزوجاته : الزمن مكانكن ، و إيا كن والتقدم . فقلت له : أيها العزيز ، لِمَ الذعر ؟ لسنا أعداء و إنما نحن آتيتان لنقدم اليكم الطعام . فقال : ولِمَ ومَنْ أرسلكما ؟ فقلت : جئنا من أنفسنا . فقال : وكيف ؟ فقلت : كنا نمر بمأواكم فرأينا ما أنتم فيه من فاقة فأردنا أن نساعدكم . فقال : ولم ؟ قلت : أيجب أن يُسأل المحسن عن إحسانه ؟ قال : ومتى أحسن المحسن عن غير قصد ؟ قلت هاك الدليل . وأشرت بيدى إلى الحَب . فضحك مقهقهاً وقال : نِعْمَ الدليل . تفضلا إن كنتما صادقتين ... ولكن ألستما مخلوقتين من طينتنا ؟ قلت : بلى . قال : ما ألفنا من المخلوقات إلا الشر والبغى . وأنا أتحدا كما أن تثبتا صدق دعوا كما

بأن تدخلا إلينا . فقلت : أيها العزيز ، شططت فى طلبك ، وأسرفت في سوء ظنك . فنحن نثبت لك حسن نيتنا بالانصراف عنك لا بالدخول إليك . فرفع صوته فى ضحكة مدوّية وقال : منطق جميل . ونظرت إلى زوجاته فإذا هن متراصات كالموج ، بعضه يقبل و بعضه يدبر . فعلمت أن حديثى طمأن بعضهن وأفزع البعض الآخر . وأن بينهن من تود لو تستطيع أن تدنو منى ، وبينهن من تود لو تستطيع أن تبلعها الأرض فزعا . فقنعت بأن عملى صاد بعض القلوب ، وأدخل فيها الثقة بالإحسان والفضيلة . وقلت فى نفسى : لابد من أن تنمو تلك الثقة فتشمل الفريق الآخر . ولا بد من أن تنبت الفضيلةُ فى هذه الأسرة فاضلةً تدعو إلى الإصلاح والمحبة ، وتزيل البؤس والشقاء . ولا بد من أن تجد من يؤازرها و يشد عضدها ، لأن الجانب الذى شعرت بأنه مال نحوى كان كبيراً .

ولما هممت بالعودة قلت لهن : وداعا أيتها الحبيبات ، وكان الله فى عونكن . فقال الزوج بصوت أجش : إلى أين يذهب هذا الوجه المليح ؟ فنظرت إليه مستحيية وقلت : إلى حيث يدعو الواجب . فقال : لَيْتَ الواجب هنا . فرفعت عينىّ وإذا ابتسامات

خفيفة تعلو ثغوراً ، ونظرات طائرات تعلو رؤوساً ، فزاد حيائى وعُدت مسرعة إلى المأوى مع صديقتى ، وأنا موزعة بين العجب لما رأيت مما لا يُصَدَّق من بؤس وفاقة وسوء حال ، وبين الابتهاج بتأدية الواجب الجميل دون مشقة .

١٨

استيقظنا فى صباح هذا اليوم مبكرات على أصوات الصغار تنبعث فى رفق وعذوبة من محضن تربنا العزيزة . وما كادت الشمس تملأ الساحة نوراً ودِفئاً ، حتى خرج معها إلى الوجود خمسة عشر مولوداً يستقبلون الحياة ، بأصوات مملوءة بالبشر والابتهاج .

وما كدت أسمع تلك الأصوات حتى غمرنى سرور لا حَدّ له . وهل فى الحياة أروع من رؤية الأطفال يدبون على الأرض دباً رفيقاً ، وكلهم طهر وسذاجة وحنان ؟ إن هذه الكتل اللّينة من المخلوقات تُثير فى النفس أعمق المسرّات ، وتبعث فى الجوانح ما لا يوصف من مباهج وأفراح . إن الخليقة تتراءى لنا عجوزاً شمطاء ، قاسية القلب ، كالحة الوجه ، مشئومة الطلعة . فإذا

ما رأينا فيها هذه المخلوقات الصغيرة ، انقلب وجه العجوز الشمطاء إلى وجه شابة غانية ، ممشوقة القوام ، ميمونة الطلعة ، مؤنسة العشرة . ولا غرو فى ذلك ، فالخليقة كأمها الطبيعة تمرّ فى فصول متعاقبة . وكما أن فصل الطبيعة الزاهر هو الربيع النّضر الباسم ، ففصل الخليقة اليافع هو هؤلاء الأطفال يظهرون إلى عالم الوجود . وكما أن الطبيعة تجدد نشاطها وتزكى قوتها فى فصل الربيع ، فكذلك الخليقة يشتد ساعدها ، ويغزر دمُها فى أوقات الخصب الإلهى ، الذى يظهر فى فصل الولادة . ومَنْ مِنْ أبناء الطبيعة لا يسأم إن سَحَبَ الصيفُ ذيله على أخيه الخريف ، ولم يودع الحياة فى نهاية أجله . فكل فصل له أجل لا يتمنى أحد من المخلوقات أن يراه منسحباً على حساب غيره . ولكن هناك فصلا واحداً يتمنى المخلوقات جميعاً أن يروه ممدود الأجل ، وهو فصل الربيع . وهذا موقف المخلوقات جميعاً من فصل الولادة ، فإنهم ليشعرون أنه فصل البركة والإنتاج والخير العميم ، ويودون لو أنه يعمرّ مدى الحياة .

وماذا أقول فى تربى العزيزة ، التى منحها الله أعظم البركات . ولئن كنتُ أنا الغريبة عنها شعرت بأن حياتى أخذت تتجدد برؤية تلك المخلوقات . فماذا عسى أن يكون شعور الأم ؟ .

كنت أول من هنأها وباركها . فرأيت فى عينيها نوراً إلهياً لا يعرفه إلا العابد المتبتّل الذى يهب حياته إلى الله ويصونها من الخبائث والآثام . قلت لها : أيتها الحبيبة ها قد عوّضك الله عن تضحيتك أعظم العوض ، وها أنا أرى بعينىّ مغزى ما كنت تشيرين إليه حينما كنت ألومك على إمساكك عن الطعام والشراب فقالت لى : يا أختى العزيزة ، إنى أُحسُّ أنى خُلقت من جديد ، ولو كنت أستطيع أن أدخلك فى قلبى لرأيت مالا تصدقه عيناك . إن روحى تضاعفت بقدر ما ترَيْن من أولادى ، فأنا الآن نفسٌ بخمس عشرة نفساً ، وروح بخمس عشرة روحاً ، فتصورى مخلوقاً له جسم واحد وخمس عشرة نفساً . قلت : ياله من شعور جليل مبارك . أو ما تشعرين يا أختى بتضخم جسمك أيضاً ؟ فقالت وهى تبتسم : إنك تريدينني على أن أعوض مافاتنى من الغذاء . فقلت : ليتني أستطيع أن أحملك على تغذية جسمك هذا ليقوى على حمل تلك الأرواح الخمس عشرة التى خلقت فيه . فقالت : أيتها الأخت لا تعجلى ، وأرجو أن يأتى اليوم الذى تختبرين فيه ما اختبر . فسترين حينئذ أن الجسم لا يتغذى بالمادة وحدها وإنما تغذيه عناصر أبعد ما تكون عن المادة . قلت : ولكنى

أعجب كيف تقوين على حمل نفسك ، ولم يدخل جوفك طعام منذ مدة طويلة . ولو أمسك أحدُنا عن الطعام بضعة أيام لهلك لامحالة فقالت : هوما تقولين وسرّه أن الذى يتفرغ للحياة المادية يحسب أن المادة قوام حياته ، فلا يستطيع أن يصبر دونها زمناً طويلاً . وأما من انصرف عن المادة وتفرّغ إلى ماهو أسمى وأعز ، فإنه يستطيع أن يُمسك عنها مدة طويلة جداً . وهذا أمر مردّه التجربة لاالعَقل . قلت : أختى ، لله ما أجمل بيانك ! والرياضة ؟ قالت : أخرج لأجل الأعزاء . فأعنتها على الانتقال من المأوى ، والأولاد يتدافعون من حولها ، وهم على أشدّ ما يكون من المرح والنشاط . وقد كنت معهم كأحدهم ، وإن كنت أكبرمنهم سناً . الحق أن روحى كانت من سن أرواحهم ، أوأن قلبى كان من سن قلوبهم . لعل هذا يعلل سرّ شعورى باندماج روحى بأرواحهم اندماجاً تاماً . نعم إنى لست لهم أُماً حتى أستأثر بشعور الأم الذى تنفرد به دون سائر الخلق . ولكن الله يعلم أنى أتحد معهم فى الروح اتحاداً ما شعرت به فى حياتى مع أرواح أخرى .

وما أن خرجنا من المـأوى حتى هرعت الأتراب مهنئات ، فتقبلت الترب العزيزة تهانيهن بالشكر . ولكن الصغار ما ألفوا

الأتراب . وما برحوا يخرجون من تحت كنفى أمهم ويعودون إليهما من حين لآخر ، متراكضين ، متدافعين كأن فى الجو ما يذعرهم . ولكن فرح الأتراب كان عظيما بهم ، وكانت تهانيهن معبرة عن فرحهن أوضح تعبير .

ما أظن أن تربنا العزيزة تناولت حبة واحدة طول النهار على كثرة ما ضربت فى الأرض وتناولت بفمها الحب . فقد كانت مشغولة فى البحث عن أطيب الغذاء وأرطب الهنات كى يستسيغ أولادها ما يأكلون هنيئاً مريئاً . ما كانت الحبة تصل إلى فم الأم حتى يهرع الصغار يطلبونها مدلين بأنفسهم ، وكانت الحبة تسقط فى فم أحدهم بعد كثير من الرياضة واللعب .

أظن أننى كدرت تربى العزيزة بإلحاحى عليها بأن أعينها على إطعام أولادها . فقد رفضت معونتى محتجة بأن الصغار فى أشد الحاجة إلى الرياضة التى تثيرها الحبة الرقيقة أو الهنة الرطبة . ولا بُدَّ لهم من حركة ولعب لتقوى أجسامهم ، وتشتد سواعدهم . وقد أظهر سائر الأتراب ما أظهرت من استعداد للمساعدة ، ولكنها امتنعت شاكرة فى أول الأمر متضجرة فى آخره . وما أدرى لعل لها عذراً فى ما تفعل ، وقد تعجلت لومها يوم كانت تحتضن

الأجنة فأخطأت ولا أريد أن أخطىء الآن مرة أخرى

الحق أنى لا أستطيع أن أكتم شعوراً ملأ جوانحى اليوم، فقد تمنيت لأول مرة فى حياتى أن أكون كمخلوق غيرى . إنى ما حسدت مخلوقاً على نعمة ، وما نافست أحداً فى خيراته ، ولكننى أعترف اليوم أنى تمنيت أن أكون أمّا ، فياله من شعور ويا لها من نعمة !

١٩

كانت الأجنة — فى أول خروجها — متشابهة تشابه أغلفتها ، بل لكأنها الأغلفة بعينها ضمت إليها رؤوس وسيقان ، ونفخت فيها أرواح فراحت تدب على الأرض . ويا ليتها ظلت على حالها ذاك ، فالتشابه بين المخلوقات ينبىء عن الوحدة والمساواة ، ومتى اتحدت المخلوقات وتساوت ولو فى ظاهرها زال سبب من أسباب التنافر . ومن يدرى فلعل التفريق بين المخلوقات لم يوح به إلا التنافر فى أشكالها وألوانها . فحسب ذو اللون الأبيض أن لون الفضة استعير من لونه ، وحسب ذو اللون الأسود أن لون الإثمد سرق من لونه ، وحسب ذو اللون الأزرق أن لون السماء انشق من لونه ، وحسب ذو اللون

هو الأنتيمون

الأخضر أن لون المروج تقليد للونه ، ففرح كل بما لديه . ومن يدرى أيضاً فلعل كل ذى لون حسب أنه مميز فى باطنه كما هو مميز فى ظاهره ، فطغى واستكبر ، وقام الخلاف بين المخلوقات على أوهى قاعدة ، وأسخف دعوى .

إنى ما تمنيت أن يثبت لهؤلاء الأعزاء شكلهم ولونهم الأولان إلا إشفاقا عليهم من مثل هذه الأوهام والأباطيل .

ولكن ما فائدة التمنّى أمام الأمر الواقع . فالاختلاف فى الألوان أخذ يتضح ويستبين يوما بعد يوم . على أنى لن أُلقى السلاح ، وسأعرف كيف أعالج هذه الفروق الزائفة ، وكيف أطبع هؤلاء الأعزاء بطابعٍ ينسيهم ألوانهم مدى الحياة .

لازمت الأعزاء من أول نشأتهم ، وشعرت أنى لا أطيق مفارقتهم . وما أدرى ماذا شعرت تربى العزيزة نحوى وماذا فكرت بى . أتراها توهمت أنى مفطورة على التطفل والأثرة ؟ أم تراها أدركت حقيقة حبى لأولادها ، وأنى مدفوعة بعاطفة جارفة لا قدرة لى على كبحها . يحملنى على هذا التفكير ما كنت ألحظه فى عينيها من تذمر أو عدم رضى حينما ترانى أُبالغ فى مداعبة أولادها دون سائر الأتراب . على أن ذلك لم يحملنى على

تغيير موقفي قط اعتماداً على مابيني و بينها من تفاهم وتحابّ سابقين فهي تعلم مبلغ ثقتي بفهمها ورجاحة عقلها. وما أنسى مواقفها السابقة عند عَقْد الحِلف المعهود و بعد وفاة زوجنا الصالح. ومن جهة أخرى كان شعور الأولاد نحوى مشجعاً على القصد والاحتياط. ولا أُبالغ إن قلت إني كنت موضع سرهم وثقتهم، وأكاد أقول بكل اطمئنان موضعَ حبهم الصادق. ترى أأجرح كرامة الأمومة إِن قررت انهم كانوا يلوذون بي فى وقت الشدة، ويُسِرُّون إليّ آلامهم، ويلتمسون رأيي فيما يشجر بينهم من خلافِ. لعلهم كانوا يخشَوْن إغضاب أمهم، أو أنهم كانوا يجدون عاطفة الأمومة أرقّ من أن تقوى على تسوية الخلاف بين أبنائها. أو لعلهم وجدوا فى أمهم قسوة الأم المتشددة فى تربية أولادها، المبالغة فى تقدير المستقبل، وما يستلزم من اعتماد على النفس وجد وكد.. وأيا كان الأمر، فقد عقُدت قلوبنا على المحبة والتفاهم الصادقين الخالصين.

ومضى واحد وعشرون يوما وتربي العزيزة تُحيط أولادها بسياج من العطف والحنو والإرشاد مارأيت له نظيراً فى حياتى. نعم إني بلوت عطف زوجنا الصالح علينا، وما كان يحبونا به

من حنو ونصح . ولكن حب تربي لأولادها لا يُدانيه حبٌّ في الوجود . لقد كانت تؤثر أولادها على نفسها ، وما أنسى يوماً ألمَّ بها فيه انحراف في صحتها ، فتجلدت وخرجت مع أولادها كعادتها . ولكن آثار المرض والإعياء كانت بادية في مشيتها وعينيها . وكم حاولت أن أحملها على التزام المأوى ريثما تستعيد صحتها فلم أُفلح . وكان جوابها لى بعد توسلاتى : يا أختى إن صحتى فى صحة أولادى ، وسلامتى فى سلامتهم . ومع أنى أثق بحبك إياهم فإنى لا أقوى على تركهم . وكل ما استطعت أن أفعله فى ذلك اليوم أن أضرب فى الأرض مرشدة إلى مواطن الغذاء الرطب اللين.

والواقع أنى كنتُ أعجب كيف تعيش تربي العزيزة ، وكيف تقوى على التماسك بعد مرحلتى الولادة والحضانة . ويزداد عجبى حين أراها نشيطة قوية ، بل فى أشد ما يكون من القوة والنشاط . لقد كانت تلمح ظل الكلب من مسافة تدق عن نظر ذى البصر الحديد ، وكان دنوّ الظل من المأوى ينفخ فيها قوة النمر . ومن كان يستطيع أن يهزمها أو يدخل الرعب فى قلبها . أشهد لو أنها رأت جملاً مقبلاً صوب أولادها لوقفت فى وجهه .

قلت لها يوماً — وقد تملكنى العجب من اعتدادها بقوتها —

علامَ تُظهرين هذا الحول ، وأنت أنثى ضعيفة لا سند لها ؟ فبرقت عيناها وقالت : أنثى ضعيفة ! ومن يقول ذلك ؟ خذى . وضربت بمنقرها رجلى وكأنه والله سهم مسموم ! ثم أقبلت علىّ معتذرة ووضعت ريقها على موضع النقر ، فكأنها والله ماضربت! سبحانك اللهم لقد جمعت السمّ والترياق فى موضع واحد !

لقد كان فى عينها بريق نافذ يخترق الُحجب . وكان فى جسمها انفعال سريع فى قوة وحدة . فإذا بعُد واحد من أولادها وتجمع الباقون من حولها ، شعرت كأن خَلِيّة من خلايا قلبها فارغة ، وانتفضت مذعورةً تبحث عن مكانه . فإِذا ما عاد إليها غاض الاضطراب وتملكها شعور الطمأنينة .

وفى صباح اليوم الثانى والعشرين خرجت التربُ من المأوى مبكرةً كعادتها ، وخرجتْ مع سائر الزميلات ، وخرج الأولاد معاً وهم يقفزون فى نشاط ومرح دأبهم كل صباح . وأراد أحدهم أن يُداعبنى فقفز على ظهرى ، فهممتُ أن أطرحه خَشية أن تتكدر تربى . ونظرْت أمامى لأتبين شعورها فإِذا هى قد بلغت آخر الساحة . فعجبت كيف تعجَّلتْ سيرَها اليومَ خلاف عادتها . وما كدت أسير قليلاً حتى رأيت الأولاد يتراكضون

فى أطراف الساحة ، وتربى العزيزة تنقر الحبَّ فى نهم عجيب . فنظرت وأطلت النظر ولكنى ما صدقت عينىّ فهذا أحد أولادها يدنو ليتناول حبة من أمامها فتُسرع وتتناولها قبله . وهذا يُشرِّق وذاك يغرِّب وهى لاهية كأنها ماتعرفهم . فوقفت مذهولة . تُرى ماذا جرى لها ؟ لقد كانت بالأمس أمًّا بارةً عصبيةَ المزاج لفرط حنوّها . واليوم كأنها ما عرفت الأمومة ولا أحست بها . ترى هل اوقع بينها و بين أولادها ما يحملها على هذا التطور العجيب ؟ ومتى كانت الأمومة ثوباً يلبس فى يوم وينزع فى يوم آخر ؟ وكيف يصح أن ينتقل قلبٌ من حالِ الُحبِّ المبرّح إلى حال الكره الذميم ؟ لمْ أتمالك أن أسرعت نحو الأولاد فرأيتهم على غير ما توقعت . رأيتهم يأكلون و يلعبون و يضحكون ، كأنهم ما فقدوا أمًّا . أفقدوا هم أيضاً عاطفة البنوّة ؟ وهل البنوة ثوب يخلع أيضاً !

وفى لحظة مر بخاطرى رأى . هذه فرصة سانحة لأقتنصها . لئن فقدتْ الأمُّ عاطفتهَا وفقد الأبناء عاطفتهم لتزدادنَّ عاطفتى قوة وثباتاً . لقد وقع بيدى الآن السلاح الذى طالما تمنيته . لأحتضن الأولاد ولأكن لهم أمًّا ثابتةَ العاطفة ، وصديقة مخلصةَ المحبة .

فدنوت منهم وصحت فيهم : أيها الأعزاء ، يا فلذات الكبد ، ويا حبات القلب . تعالوا إلىّ . أدنوا منى . إنى سأعيش لكم طوال العمر . لقد انعقدت بينى و بينكم المودة منذ خرجتم إلى هذه الحياة . ولن أتخلف عنكم لحظة . . . اتخذونى لكم أماً وأباً وصديقة . وخنقتنى العبرات . . . وما استطعت أن أتم حديثى . فقد كنت أريد أن أقول كثيراً . ولكنهم فهموا كل هذا الكثير . فالتفوا حولى ، ورأيت فى عيونهم مثلَ الذى رأوا فى عَيْنَىّ . ومنذ تلك اللحظة شعرت أننا روح واحدة حلّت فى فى أجسام متفرقة . ورأيت فيهم ما أنشد من ثقة وطاعة .

٢٠

مضت أيام وتربى العزيزة ممعنة فى الانصراف عن أولادها . وقد رأيت فى تربى ذات الوجه الغريب عوناً على أداء واجبى نحو الأولاد . فقد دهشت هى كما دهشت . وقالت لى : ليتنى أستطيع أن أصف لك وجهها وعينيها يوم رأتنى وراء الجدار . إنها كانت تحمل جمرتين لا عينين . لقد كان بريقُ عينيها أشدَّ من اللهب . ولو طالتنى يدُها لصرعتنى . ووالله ما كنت أقدر

على النظر فى عينيها ، فكيف على مقاومتها ... وهى اليوم هادئة ساكنة . فقلت لها : يا أختى لندع اللوم ، فلعل هناك سراً غاب عنا . وكل سر لا بد من أن يفتضح . ولننصرف نحن إلى شأننا. ولقد كنت خيرَ عون لى فى هذه الأيام العصيبة ، فاستمرى فى مؤازرتى . فنحن الآن فى أشد الحاجة إلى رعاية هؤلاء الأولاد ، والتعويض لهم عما فقدوا ، إن صحّ للأمومة أن تعوض . ونحن ثانياً مسئولات عن تربيتهم وثقافتهم . وقد بلوت أنت كما بلوت أنا سرَّ الأسرة الفاقدة التربية والثقافة ، بل لعل بلاءك أبلغ وأعظم من بلائى . فقالت : يا أختى ، لقد خلقك الله طباً للبؤساء ، ورزقك الجلد والصبر والثقة ومضاء العزيمة . وأنا بعد صنع يديك فمرى وأنا أطوع لك من بنانك . فقلت : يا أختى إن كنت تطلبين رضاى فجنبينى أولاً سماع الثناء علىّ . فإنى أكره أن يدخل فى وهمى أنى مخلوقة فوق المخلوقات . وأعينينى ثانياً على بث المثل العليا فى هؤلاء الأولاد فى رفق وتؤدة . فليس شىء أحب إلى قلبى من رؤية الفضائل تنمو والمثل العليا تزدهر ، والمحبة تشيع بين المخلوقات جميعا .

وما كدت أتم كلامى حتى صاحت بى : أختى ، أنظرى هناك .

وأشارت بيدها إلى أحد جوانب الساحة . فنظرت فإذا اثنان من الصغار يتصارعان بعنف وقوة كأنهما عدوان لدودان ، أو ضرتان ضاريتان . يبعد الواحد منهما مسافة قدمين ثم يملأ صدره هواء وينفخ جلده ، ويوتر أعصابه ويهجم على أخيه يضرب به على أم رأسه أو فوق أنفه . فيتلقى ذاك الضربة فى جلد ويسرع إلى الوراء ويتهيأ للضربة ثم ينقض على ضاربه قبل أن يستعد لتوجيه ضربته الثانية . ثم يفعل الأول مايفعله الثانى ، ويستمران فى كر وفر ، وجول وصول إلى أن تنتهك قواهما وتتفجر جراحهما دماً ، فيمسكا إلى رجعة .

نظرنا إليهما دهشتين . ثم أخذنا نتبادل النظرات فى صمت وفزع كأنما تستشيرنى وأستشيرها فيما يجب أن نفعل . وقطع صمتَنا صوتٌ يُرسل متقطعاً كأنه صوت ضربات متتابعة على طبل ضخم . فنظرنا صوبه ، وإذا تربنا العزيزة تنظر إلى ولديها وتقهقه من فرط الضحك . وكلما اشتد الصراع ، وسددت الضربات وغزر الدم اشتد ضحكها وارتفع صوتها . فأخذنا ندير أعناقنا مرة صوب الصغيرين ومرة صوب الأم . . والمصاولة تحتدم والصوت يرتفع . . حتى خشينا أن يهلك الطفلان وأمهما فى وقت

واحد . صحت فى تربى ذات الوجه الغريب : أسرعى وحولى بين الصغيرين . فنفذت نحوهما كالسهم ، وكأنما كانت تنتظرمثل هذا الطلب وأمسكت أحدالصغيرين بيديها وأخذته إلى المأوى ، وأدخلته فيه ، وهو يُقاوم فى عنف ، والدم يتفجر من الثغرات العديدة فوق أنفه وأعلى رأسه . ثم أسرعت نحو الثانى وقبضَتْ على يده وساقته إلىّ . ونظرتُ إلى الأم فاذا وجهها مكفهر ، وإذا هى تُسرع الخطى ، وتضرب فى الأرض باحثة عن الحَبِّ السمين ، كأن لم تر شيئاً . وددت لو أدخل فى أعماق هذه الترب فى تلك اللحظة لأرى حقيقة شعورها . إنها بلبلت أفكارى وحيرَّت عقلى . لقد كانت قبل أن تلد مثالَ الكمال والاتزان . وكانت فى أثناء الولادة والحضانة مثال التضحية والإخلاص ، والآن ماذا جرى ؟ أأنهكتها أيام الولادة والحضانة واستنفدت قواها فمُسَّت ؟ أأُوحى إليها أن قد تَمَّ واجبُها وانتهى دورها ، فمسحت يَدَها من أولادها ؟ أرأت بعين الفطرة أن خير ما تصنع أن ينشأ أولادُها معتمدين على أنفسهم اعتماداً تاما كى تتكون فيهم الخشونة والصلابة اللازمتان لمقارعة الخطوب والأحداث ؟ أنشأ بين عقلها وقلبها صراع فانتصر الأول وأضحت

تسير بعقلها دون قلبها ؟ و إنى أعلم ما يكون جوابها لو تطفلتُ بالسؤال ، ستقول لى بابتسامة ماكرة : انتظرى حتى تُصبحى أما ... وهذا جواب سئمته لكثرة ما سمعته .

جاءت تربى بالطفل وقالت : أنظرى كيف يتفجر الدم من وجهه . . فوضعت يدى على وجهه ومسحت دمه وقلت له : لِمَ هذا الصراع ؟ قال : دأب يأخذ الحَبَّ من أمامى فنصحته أن يكف فما كف . واليوم فار دمى ولم أتمالك أن لطمته فلطمنى وشجر الصراع . قلت له : أتقتتلان من أجل الحَبّ ؟ قال : هو الذى بدأ العدوان ، قلت : أى عدوان هذا الذى تبيحان فى سبيله إراقة الدماء وإزهاق الأرواح ؟ قال : تعدَّى علىَّ ونقر حبى ؟ قلت : حبك ؟ الحَبُّ ملء الأرض وهو مشاع لجميع المخلوقات ، ولو تركته يأخذ الحب من أمامك لتركك تأخذه من أمامه ، ولو فعلتما ذلك لوجد كل واحد منكما كفايته وما فوق الكفاية . . يا عجبا لكما ! أتجدان الحياة أثمن من الحَبّ ؟ فرفع بصره إلىّ ثم ردَّه وقال : أيستطيع مخلوق أن يستغنى عن الحب ؟ قلت : لا . قال : إذن الحب والحياة شىء واحد ، ومن أخذ حبى كأنما أخذ حياتى . . . . فحزّ فى قلبى قولهُ ، وقلت له : ومن

علمك هذه السفسطة التى كانت أعظم بلاء على الخلق منذ ظهروا على وجه الأرض ؟ إن الحبَّ فى نفسه لم يكن فى يوم من الأيام سبباً للنزاع بين الخلق ، إن النزاع — إن جاز أن يقع — يقع حول ما هو نادر وثمين . والحبُّ ملء الأرض ، ولو كوّمته لبلغ عنان السماء . إن النزاع ، يا بنىّ ، وليد الشهوات الجامحة ، ومن ألجم شهوته بلجام القناعة ، بنت الفطرة البكر ، ما عرف النزاع فى حياته قط . إنَّ الحبة أو الحبات التى نقرها أخوك من أمامك ما كانت لترد عليك حياتك لو سُلبت . ولو لم تمنعه أول مرة من أخذ الحب من أمامك لما تولدت فى نفسه رغبةٌ فيـه ، ولما تعدّى على ما تزعمه حق لك . فأنت إذن الملوم . فاذهب إلى أخيك واعتذر إليه ، ولا تَعد إلى مثل تلك السفسطة التى تُرديك وتُرديه معاً . . . فطأطأ رأسه مستحيياً وسار نحو المأوى .

٢١

قلّ الحبُّ فى الساحة لأول مرة ، ومسنا الجوع مسًّا رفيقاً فى بدء الأمر ، ثم مسًّا قاسياً لاذعاً فى نهاية الأمر . فأخذنا نبحث عن الطعام فى أطراف الساحة ، ونضرب فى الأرض حفراً ونقراً ،

وما نسقط إلا على ما يسد الرمق ويمسك النفس من التلف .

وقد عجبت لتربى ذات الأجنة فى أثناء هذه الحطمة . فقد كانت أقلنا تحملا لتباريح الجوع ، وأشدنا فزعا من قلة الطعام ، وأكثرنا نهما وأكلا . كانت تأكل وتأكل كأنها لا تعرف الشبع ، وكأنها كلما أكلت زادت جوعا . تُرى أفتُح أتون فى جوفها يلتهم الأخضر واليابس ؟ إن مثلها مَنْ ذاق الجوع فيما مضى من حياته وصبر له ، كان ينبغى أن لا يجزع ولا يشره إلى الطعام ... ولكن يظهر أن من ابتُلى بالحرمان ابتُلى بالجشع . ولا أنكر أنى وسائر العشيرة شعرنا برغبة ملحّة فى الطعام ما ألفناها فى الأيام السابقة . وكأن غريزة المحافظة على الحياة كانت نائمة فاستيقظت . أنامها الأمانُ وأيقظها الخوف . فعلمت بذلك علم اليقين أن حياة المخلوق معرضة للوساوس والأوهام . يشبعه الوهم حينا ويجيعُه حيناً آخر ، ومعدته ثابتة لا تتغيّر . إن استطاع المخلوق أن يتسلطَ على شهواته وغرائزه ، كان مزاجُه أقربَ إلى الثبات والاعتدال ، وأبعدَ عن التأثر بطوارىء الأوهام .

لقد خشيت على الأولاد أن يُفسد الجوعُ أخلاقَهم . فهم أضعف منا أجساما ، وأرطب عودا ، وأرق إحساسا . وهم لذلك

أقل منا تحملا للجوع . ولكنهم ما استخذوا وما وهنوا . وراحوا يضربون فى الأرض بجد ونشاط . ولما عزَّ الحبُّ جاءوا يشكون إلىّ ما يعانون . قلت : أيها الأعزاء ! كيف يمسكم الجوع وأنتم فى منبسط من الأرض لا يحدّه البصر ؟ فقالوا بصوت واحد : وهذه الجدران المرتفعة من يُزيلها ؟ قلت : إن عزيمة الشباب تعلو كل مرتفع ، وتقتحم كل عقبة . ابحثوا عن ثغرة فى الجدار وانفذوا منها إلى أرض الله الواسعة . فقالوا : لقد عودتنا حُبَّ النظام وأوصيتنا أن لا نتعدى الجدار . وكنا فى هذه الأزمة نشعر بقوة تدكّ الجِدار ، ولكنَّا أمسكنا خَشية إغضابك . فقلت لهم بصوت فيه نشوة الظفر : لقد علمتكم فى أيام الرخاء القناعة والنظام ، وأريد أن أعلمكم فى هذه الأيام السود التذرع بالفتوة ، والسعى فى طلب الرزق . إن ما مرّ ببال بعض الخلق ، فى يوم من الأيام ، من أن العمل مراتب ، منه الشريف ومنه الوضيع ، ينبغى أن تَنْسَوْه أنتم حتى يصبح كأن لم يكن . إن اليد الخشنة المقرّحَة بالعمل هى العليا ، واليَد الناعمة المطراة بالترف هى السفلى . . . فما كدت أُتم حتى تعالت الأصوات بقوة تخرق السمع : هيّا . . . فنظرت إليهم وعجبت لحناجرهم الرخوة كيف

استطاعت أن تُحدث ذلك الصوت المروّع . . ودبت فيَّ حماسة لم أعهد مثلَها مِنْ قبل ، فقلت : قفوا . . ودعوني أتقدمكم في فتح الثغرة ... وأقبلنا جميعا نجوس خلال الجدران المتماسكة البنيان ، باحثين عن نقطة نقتحمها . وفي لحظات فتحنا ثغرة خرج منها الأولاد كالسهام المنطلقة ، وكان ذلك أول خروجهم لأكل الحب بعرق الجبين .

تركت الأولاد وحدهم يستمتعون بنعيم الحرية ، وفضيلة الاعتماد على النفس ، ولذة البحث عن الطعام في أرض واسعة لا يفوز بخيراتها إلاّ العامل المجدّ ، وعُدت إلى الساحة ، فإذا بالأتراب يجلسن مكتئبات ، وما كدت أصل إلى مقامهن حتى بادرتني إحداهن بقولها : أيتها الأخت كيف أبحت لهؤلاء الصغار الخروجَ من المأوى ؟ قلت : إنهم ما عادوا صغارا . وهذا أوان خروجهم للسعي في طلب الرزق . فقالت ثانية : لقد عشنا في هذه الديار طويلا دون أن نتعدى الجدار ، فماذا جَدَّ اليوم حتى يُخَالفَ العُرف ، ويُثار على النظام ؟ وهممت أن أجيب ، وإذا بتربي ذات الأجنة تفتح فمها فأمسكت حتى أعرف رأيها ، ولكنها بدلاً من أن تتكلم أخذت تضحك ضحكاً عالياً ، يشبه

ضحكها يوم تصارع ولداها . فغاظنى عملها، ولم أخش قطع ضحكها، فقلت للتربين وعيناى مسلطتان على تربى الضاحكة : إنكما تسألان عمّا جَدَّ حتى يُخالفَ العُرف . لقد جَدَّ الشبابُ وجد الجوع . وواحدمنهما خليق أن يدفع بالمخلوق إلى العمل ، فكيف وقد اجتمعا ؟ فقالت إحداهن : مثلك أيتها الأخت من يتذرع بالصبر فى أيام الشدة ، فكيف فقدت الآن صبرك ؟ قلت : إن أولادنا يعيشون لزمن غير زماننا هذا . وقد جَدَّ الآن ، وسيجد غداً ، من الظروف والأحوال مايدعو أن يكونوا على أتمّ استعداد لمواجهتها بعزائم قوية وقلوب لاتعرف الخور والاستسلام . فقالت تربى ذات الوجه الغريب : صدقت والله أيتها الأخت العزيزة . إن من ينشأ على الاستسلام والاستخذاء يشبّ عليهما . وقد بلوت شرَّ ذلك فى أُسرتى . فقد رأيت الجيل الجديد يقفو أثر الجيل القديم ، ويفوقه فى التزيد من سيئاته . وما رأيت من يفكر فى الخروج على المألوف ، فساء حالنا حتى وصل إلى ما نحن عليه من التخاذل والفقر والضعة والفساد . فقالت ترب : ولم لم تثورى على العُرف ؟ فقالت: لأنى كنت أعتقد أن الفرْدَ أضعفُ من أن يقوى على إصلاح غيره . بل إنه يعجز أحياناً عن إصلاح

نفسه . ولما قُدِّر لى أن ألتجىء إلى مأوا كن وأ كتشف أسرار كن وأتتبع ما يجرى كل يوم صرت أعتقد أن كلمة الخير شجرةٌ مباركة لا بُدَّ من أن تُنتج عاجلاً أو آجلاً ، وأن حياة الركود والاستسلام جبن لا يقيم عليه إلاّ الأرذلون من المخلوقات . . .

كانت صديقتى تتكلم وأنا فى حالة من النشوة عجيبة . ولكنى لم أُعقب على قولها بكلمة . . كان يسكتنى الفرح بالنصر ... وما أدرى ما كنت أستطيع أن أقول لو دُعيت إلى القول . . وقد رحمنى مجىء الأولاد يحملون بأفواههم الحَبَّ السمين والهنات الطيبات .

كنت أحسب تربى ذات الأجنة تأبى مشاركتنا ، فإذا هى تأكل بشره . لقد أُوحى إليها أنها تأكل ممن أطعمت ، وتتغذى ممن غذّت ، ففُتحت شهوتها واندلع منها لسان حاد كلهب التنور لا يُبقى ولا يذر . وما أعرف أنا أكلنا بمثل هذه الشهوة من قبل .

كانت الثغرة التى فتحت بويباً للفرج ، فأضحت الآن باباً من أبواب الرحمة للأسرة جميعها ... وما لبث الحَبُّ أن عاد كما كان فى سابق عهدنا . ولكن الأولاد ما برحوا ينفذون منها إلى أرض الله الواسعة يلتمسون أشياء أجلَّ من الطعام ... يلتمسون الحرية ، حرية الحركة والسير ، ويلتمسون الاعتماد

على النفس ، وفضيلة التعاون فى بناء بيتهم الجديد ، وأخيراً يلتمسون الرزق بعرق الجبين . . . وما شجر بينهم خلاف ، ولا استطار شرٌّ . ولقد أصبحوا الآن نواة صالحة لمجتمع جديد . .

٢٢

وفيما أفكر فى المستقبل الزاهر السعيد ، وأسبح فى عالم الآمال والأحلام ، إذ تفاجئنى تربي ذاتُ الوجه الغريب بقولها : أيتها الأخت الحبيبة ! عزمت على مغادرة مأوانا الطيب قلت : إلى أين ؟ قالت : إلى بيتى القديم وعشيرتى القديمة . قلت : وكيف تعودين بعد الفراق الطويل ؟ إنى أخشى أن يصيبك ضيم . قالت : إنى لا أُبالى بما يلحقنى . قلت : ولكن أنا أُبالى . . . قالت : يا أختى ، أتبالين بالضيم يلحقك فى سبيل المثل العليا ؟ قلت : كلا والله ! قالت : فكيف أُبالى أنا إذن ؟ ففهمت مقصدها وأنها عزمت على القيام بعمل عظيم . . وما كانَ لى أن أصدها عن عزمها . ولكن عز علىَّ فراقُها . لقد كانت أسرع الأتراب فهما لآرائى ، وأشدهن مؤازرة لى ، وأحرصهن على التضحية فى سبيل الخير العام . وقد كنت أعول عليها كثيراً فى تهذيب

الأولاد . وقد أحبوها بقدر ما أحبتهن . والحُبُّ خير وسيلة لنقل الأفكار و بث المذاهب .

تملكنى عاملان لفراقها . عامل الفرح لأنها ستحمل رسالةَ الخير والصلاح لعشيرتها . ومثلها خليق بالنجاح . فقد عرفت فيها مضاء العزيمة والبذل الغالى فى سبيل المبدأ . ومتى اجتمعت العزيمة والمبدأ فلا مفر من النجاح . والعامل الثانى عامل الحزن ، لأنى أفقد صديقة مخلصة وعضواً كريماً فى أسرتنا قلت :

— والدمع ينحدر من عينىّ — ومتى تغادرين أيتها الحبيبة ؟ قالت : بعد قليل . فإنى ماودَّعت الأتراب والأعزاء . وقد كتمت عنهم أمر مغادرتى . قلت : ليرافقك التوفيق ، وليُسعدك النجاح . فهل لى أن أكلفك زيارَتنا لنطلع على أخبارك ؟ قالت : لن أتأخر عن الزيارة . ولكنى عازمة على تنفيذ مبادئنا مهما كلفنى الأمر . ولَنْ أغادر العشيرة مهما بلغت الصعوبات من القوة والصلابة . وربما حَجبنى ذلك مدة . فإن تأخرت فاعلمى عذرى . فهجمت عليها أقبلها وأدعو لها . وتعانقنا لحظات غبنا فيها عن الدنيا . وكأن روحينا انقلبتا إلى سائلين متمازجين . .

ورآنا الأولادُ على هذا الحال فهرعوا إلينا ، وأقبل الأتراب

فاجتمعت الأسرة كلها ، فقالت تربى العاقلة — وهذه من الفرص النوادر التى تكلمت فيها بعد الولادة : ما الخطب ؟ قلت : جاءت تودعنا ! قالت : وكيف ؟ ألم تخبرينا أنها التجأت إلينا ؟ قلت : نعم ، والآن حنَّت إلى عشيرتها . قالت : ألم تقل إن حال العشيرة أسوأ من أن يُحتمل ؟ قلت نعم . . فقاطعتنى ذاتُ الوجه الغريب قائلة : كنت أعتقد ذلك يوم جئتُ ، ولكنى غيّرت اعتقادى . قالت تربى العاقلة : وكيف ؟ أجاءك نبأ أن العشيرة صَلُح حالها ؟ فأجابتها : لا . . ولكن صلح حالى أنا . فقالت : عهدناك صالحة الحال منذ وفدت علينا ، ولا بد أن يكون ثمة جديد . فقلت : أيتها الأخت . نعم ، ثمة جديد . لقد رأت أُختنا بعين البصيرة أن شقاء أسرتها يُمكن أن يحسم . قالت : وما سبيل ذلك ؟ قلت : أن تعود إليها وتنشر فيها المبادئ السامية ، فلا ينبغى أن توجد بُقعة فى هذه الدنيا محرومة من العدل والمساواة والمحبة والتعاون . ومن أولى بإصلاح تلك البقعة من أُختنا ؟ فقالت : وهل اتخذت ماينبغى من عدة لمقاومة الأهوال ومصاولة الأحداث ؟ فقالت ذاتُ الوجه الغريب : نعم إن عدتى إيمانى بصحة مبادئى واستعدادى للتضحية فى سبيل تلك المبادئ . . فقالت : أيتها

الأخت ، إن جمعت بين الإيمان والتضحية فقد وفرت جميع أسباب النجاح . فأجابت : أيتها الأخت الرشيدة ، لقد شقيت بشقاء عشيرتي مدةً من العمر ، وأنا لا أدرى أين المصير ، أفلا أشقى الآن مدة أُخرى فى سبيل تحقيق سعادةٍ ستشمل عشيرتى وتشملنى طوال العمر ؟ لو كان المخلوقُ مفطوراً على الوَحدة والاستقلال الكلى عن المجموع لصحَّ له أن يشقى وينعَم منفرداً عن عشيرته ، ولكن كيف يستطيع مخلوقٌ أن يُنشِىء قصراً جميلاً منجَّداً وسط مقبرة غاصَّة بالأشلاء والجماجم ؟ إنَّ من يزعم أنه يستطيع أن يفعل ذلك لأَضلُّ مخلوقٍ على وجه الأرض . إنه قد يُلهى بزخرف قصره مدةً من الزمن ، ولكن فى اللحظة التى يخرج فيها رأسَه من القصر ، بل فى اللحظة التى يفتح فيها نافذته ليستنشق الهواء الذى لا غنى له عنه ، سيُصاب دماغُه بأقسى رجفة فى الوجود . إن صدى الصوت الواحد لا يُؤنس ، إنه يوحش . . يزلزل العقل . . يورث الجنون .

وما بلغت تربى ذات الوجه الغريب إلى هذا الحد حتى اشتد صوتُها واحمرَّت عيناها ، فآمنت أنها صاحبة رسالة كانت مدفونة فى أعماق صدرها ، فدنوت منها ، وقبضت على يدها ، وقلت لها

أيتها الحبيبة ، إنى رجوتك مرة أن تجنبينى الثناء على خشية أن أُصاب بالغرور ، وأنا أيضاً أكره أن أُثنى على غيرى خشية أن يتوهم ما أتوهم ، ولكنى مع ذلك لا أملك إلا الثناء عليك . إنك تتكلمين بحرارة المؤمن الملهَم . فقاطعتنى قائلة : أيتها الأخت أيجوز أن نتقارض الثناء فى هذا الموقف ؟ بصّرينى بعيوبى حتى أصبح خليقة بحمل رسالة الإصلاح ، وحتى يرى الخلقُ أنى تأدبت بمبادئى قبل أن أدعوهم إليها ، وحتى يعلموا أن أولَ مرحلة من مراحل المثل العليا أن يُبرِئ المخلوقُ نفسَه من العيوب والنقائص . ولعمرى إنها أشق مرحلة . فقلت : أيتها الحبيبة ، حالفك التوفيق . .

٢٣

طال انتظارى ولم تعد تربُنا العزيزة ، ولم يصل منها خبر ، فاستحثنى الشوقُ إليها . فخرجت وحدى مسترشدة بذاكرتى . وما كدت أسير قليلاً حتى رأيت عملاقاً من أولئك العمالقة الطغاة ، فتجنبته لأنى أعلم أن السلامة فى تجنب الشر . ولكن حذرى الذى فُطرت عليه ألهمنى أن أنظر إليه بطرف عينى ، فإذا هو يرمقنى

بنظرات حداد ، فأسرعت فى السير ، وألقيت عليه نظرة ثانية ، فإذا هو يتبعنى ، فحدثتنى نفسى أنه يُضمر شراً ، فتباطأت لأتبين حقيقةَ مقصده . فإذا هو يُسرع نحوى يطلبنى ، فقلت فى نفسى أيتوهم هذا العملاق أن ساقيه الطويلتين تتغلبان على ساقىّ الدقيقتين ؟ إنه مخطىء لأنه محروم مّما جُبِلْنا عليه من الحرص والحذر . وتظاهرت بالعثور بحجر ، ونظرت إلى وجهه وإذا الشره يرسم على فمه ابتسامةَ الظفر ، وإذا هو يفتح ذراعيه كمن يريد أن يقبض على لص هارب . فقفزت وعدوت مسافةً طويلة ، فتوهم أنى سأعثر ثانية وأن التعب سيُجهدنى ويوقعنى بين يديه غنيمةً مستساغة . فعدا وعدوت ، وأخذنا نتراكض ، وأخذت أدور به يمنة ويسرة أعلو نجداً وأنخفض فى وهدة . أقفز على جدار وأنزل فى تربة شائكة ، والمسكين يدور إلى أن غمره العرق وتصبّب من جبينه ، فأخذ منديله يمسح عرقه ، ثم قاس ما بيننا من مسافة وتوهم أنه يستطيع أن يُطلق ساقيه فى أقصى سرعة ، فعدت من حيث جاء لأعلمه أن قياسه مضل ، فعاد معى وأخذت أخفضه تارة وأرفعه أخرى إلى أن ظهر عليه الإعياء فالقنوط . وعندئذ مددت له حبـلَ الأمل والتجأت إلى جدار أستدعى

همّته وأُثير شرهه ، فجازت عليه الحِيلة وعدا نحوى ، وما كاد يدنو حتى قفزتُ عن الجدار ، فوقف يلعن حظَّه ، ويفرك يديه كما يفعل الخائب . فأشفقت عليه ، ووددت لو أنفق جهده فى سبيل أجدى عليه . وكم يُنفق المخلوق جهده فى ضلال ! ولو صوَّب بعضَ ذاك الجهد إلى ما فيه خيرُه وصلاحُه لما احتاج إلى العدوان على الضعفاء . لو بذل هذا العملاق بعض ما أنفقه فى مطاردتى وملاحقتى على حرث أرض لحصد خيراً كثيراً ، ولو بذله فى صنع آلة لباع واشترى . ولكن ما علىّ ، فإنى خرجت لأداء واجب فلأسلكن سبيلى ، وليذهب العملاق حيث شاء .

أخذت أستقصى الطريق فإذا المسافة التى قطعتها طويلة حقاً وإذا أنا فى أرض شاسعة . لقد سرت أكثر مما توهمت . ولقد سار صاحبى العملاق أيضاً أكثر مما توهم ، ولو حسب أنه قاطعٌ هذهَ المسافة لما حمل نفسه هذا العناء ، ولكنه عملاق يستقصر ما نستطيل ، ويستقرب ما نستبعد ؛ فملت ناحية ويممت شطر مرتفع تتوسطه شجرة كبيرة من شجر البلوط الضخم ، فقلت نِعْمَ المقام ، ونعْمَ المعتصم . وارتقيت الهضبة وجلست أستظل من حرارة الشمس التى كانت فى وسط السماء .

جلست أتأمل ما حولى . وإذا على مسافة قريبة من أمامى طريق عريض اختطته العمالقة لأنفسها . وإذا على يمينى ويسارى أرض فسيحة تستدير فى اتّساع حتى تشمل الهضبة ، ولكنها تنبسط من ورائى أكثر مما تنبسط على جانبىَّ . ونظرتُ حول الشجرة فإذا حصى كثير ، وإذا آثار موقد ، وبعض الهنات ، فأخذت أنقر وأستمتع بالهواء العليل ، ريثما أستجم وأتابع السير إلى تلك الصديقة العزيزة .

واستوقف نظرى عملاق يسلك الطريق التى أمام الهضبة فتأملته خَشية أن يكون صاحبى فيعكر صفو مجلسى . وأخذت أتابعه . وإذا هو عملاق آخر . فحدَّقت إليه فإذا عِتلّ مشمخِرُ الأنف مصعّر الخدين منتفخ الأوداج فقلت : أتغدّاه قبل أن يتعشانى . وجمعت حولى حصى دقيقاً ، فما كاد يظهر حتى حصبته فوقعت الحصاة على زجاجة تستر عينه . ولولاها لفقأت عينه ، فوقف فجأة مذعوراً ، وأدار وجهه صوب الشجرة ونظر ، فلم يرَ أحداً . ويظهر أنه استصغرنى فتابع سيره ؛ فأخذت حصاة ثانية وسددتها إلى أنفه الضخم الأحمر ، وأنا أرجو أن تُفرغ ما فيه من كبرياء وطغيان ، فيعود أنفُه كما يجب أن يكون من الوسامة والاعتدال

والتواضع . وما كادت تقع الحصاةُ حيث صوبتُ حتى صاح : وآ أنفاه . . فلم أستطع أن أحبس نفسى عن الضحك ، فارتفع صوتى ودوّى فى أذنيه الطويلتين ؛ فنظر إلىَّ دهشاً ، وقال بصوت مرتفع يستر ذعره : مَنْ هناك ؟ وهممت أن أقول له : أنا . . لأعلمه أن الاستخفاف بخلق الله الضعفاء مسلك شائك . ولكنى صمت لأختبر شجاعته . ولما لم يسمع جواباً أخرج منديلا ووضعه على أنفه الدامى وهرول ... إلى أين أيها العملاق ؟ فما سمع هذه الجملة حتى التفتَ برأسه دون سائر جسمه ، وساقاه من تحته ترتعدان كأنه أمام أسد مفترس ... إلى أين أيُّها العِتلّ ؟ وهنا أعاد رأسه إلى الأمام وشرع يعدو كأنه فى سباق . . فأرسلت ضحكات كانت تقع على رأسه كصوت الرعد فى الليلة الحالكة .

اكتفيت بهذا المشهد ، وجلست أتأمل طباع هذه العمالقة الغريبة الأطوار . ترى الواحد منهم إن استضعف مخلوقاً من مخلوقات الله يسير فى أمن واطمئنان ، تأخذه حمية الشره ، وتتملكه شهوة الطمع فيطارد فريسته فى قسوة الباغى . فإن استخذت الفريسة انقضَّ عليها وافترسها ، وإن أبت عليه احتال لها ، وإن طالت عليه تصبّر إلى حين . وإن كان المخلوق عزيزَ

الجانب معتصما بقوّته طلب العِملاق الأمان ، وتظاهر بالقناعة بالحرمان . وإن صاوله المخلوقُ وباداْه العُدوان استخذى العملاق وولّى هارباً .

إن الحُكم عند هؤلاء العمالقة لايقوم على المُثل العليا ، ولاعلى المبادئ الصحيحة ، وإنما يقوم على أساس واحد : هو القوة . ولو كان الخالق يعلم أن خلقه سيستغلون حكمته فى خلقه الكبير والصغير ، والقوى والضعيف ، لسوّى خلقه على غير هذه الصور ، ولجعلهم أمةً واحدة متساوية الأجسام والأحجام والعُدّة والقوى . ولكنّ الله يعلم أن العمالقة لا تَعْدَم حيلة للخروج عن كل تسويةٍ يرتئيها . ولذلك خلق ، وحمّل كل مخلوق وزره على كتفه .

لست مكلفةً أن أبلو العمالقة ، ولست منهم وليسوا منى ، وإنما طاردنى واحد منهم وأخرجنى عن قصدى ، ودفعنى إلى هذا الاختبار دفعاً ، ولست أحب التمادى فى الشر ، وإن أركبته بالقوة . .

تركت ذلك المجلس الأنيق وهرعت أبحث عن مسكن صديقتى العزيزة ، وجددت فى السير متجنبة كل عملاق ؛ وبعد سير مُضْنٍ بلغت المسكن ؛ فسرت نحوه بحذر ، وجلست تحت السور

قليلا أسترق السمع ، و إذا صوت غناء يندفع برفق وعذوبة . يالله ! أتراهم ينشدون فرحين ؟ أترى ذلك من عمل تربى العزيزة ! وقفت ونظرت فإذا هم فى حلقات يرقصون ، و إذا فى وسط حلقة كبيرة صديقتى تغنى فرحة ، ومَنْ حولها يرد عليها . ليتنى أستطيع أن أقفز لأكون فى وسطهم أشاركهم فى غنائهم ! ليتنى واحدة منهم ولو مدة قصيرة !

هممت أن أقفز فردَّنى عقلى . ورأى أولاد ينتظرون ، ورأى أتراب يستفقدون ، ومن يضمن لى العودَة إن دخلت ؟ ولم أضعُ نفسى فى هذا المأزق ؟ ألم يكن غرضى أن أتحقق من أمر صديقتى العزيزة ؟ لقد بلغت الآن ما أريد ، إنها سعيدة ؛ ومددت عنقى ونظرت ثانية ، و إذا الغناء يشتدّ فى انسجام ورفق ، و إذا السعادة تعمُّ الأسرة جميعَها ، و إذا صديقتى تمعن فى الغناء . نظرتُ إليها نظرات سريعة مودّعة ، وقلبى ينفطر شوقاً للقائها ... ولكن إلى المأوى . . إلى الواجب فلأسرعن ، وأنتِ أيتها الأخت الحبيبة لتحرسك العنايةُ الإلهية ، وليبرِّد اللهُ شوقى بلقائك .

الى أين ... الله ... السعيدة

٢٤

قصصت على أترابى ما رأيت فى أثناء زيارتى لصديقتى ذات الوجه الغريب ، فوقع فى قلبهن من السرور مثل ما وقع فى قلبى لتوفق صديقتنا العزيزة فى إصلاح عشيرتها . ولمننى لأنى ما دخلت مأواها .

أما ما وقع لى مع العمالقة فقد أثار سخطهن وحنقهن ، فقالت تربى العاقلة : عجيب أمر هذه المخلوقات كيف تتعاشر وتتعامل ، وكيف ينجو الضعيفُ من أنياب القوى ؟ لا بد أن تكون حياتُهم سلسلةً من الفتن والحروب ؛ قالت ترب : لعلهم — وهم عمالقـة متساوون فى القوة — يتكلفون السلم ، ولا يقع بينهم ما نتوهم من قتال وصراع ، فقلت : ما أظن الأمر كما تقولين أيتها العزيزة ، لأن الضعفاء موجودون فى كل جيل من الخلق ، وكل مستقر من الأرض ، ولا بد أن يوجد بين العمالقة القوى والضعيف ، الطموع والقنوع ، الظالم والمظلوم ؛ وإذن لا بُدَّ أن تكون الفتن والحروب بينهم مستعرة .

فقالت ترب العاقلة : ترُى على أية قاعدة يقوّم هؤلاء المخلوقات

بعضهم بعضاً ؟ لشد ما أحب أن أعاشرهم مدة لأختبر بنفسى أحوالهم ؛ فقلت : كثيراً ما يُغنى النظر عن التجربة ، والمخلوق أعجز من أن يحيط بكل شيء ويميز كل شيء ، ولذلك يستعين بالقياس على إدراك ما لم ير ومحاكمة ما لم يختبر ؛ قالت ترب : وكيف ترَيْن يقوّم بعضُهم بعضاً ؟ أم ترين أن ليس ثمة قاعدة ؟ قلت : لاشك فى أن عندهم قواعد ؛ قالت : وماذا تكون ؟ قلت : قد يقوّم بعضُهم بعضاً بالقوة ، فيقولون : فلان بقدر اثنين أو ثلاثة أو أربعة .

وقد يقوم بعضهم بعضاً بالجاه ، فيقولون : فلان جاهه ضعف جاه فلان أو ضعفاه ، أو ثلاثة أضعافه .

وقد يقوّم بعضُهم بعضاً بالفضائل ، فيقولون : عند فلان أربع فضائل ، وعند فلان خمس فضائل ، وعند فلان ست فضائل ، وعند فلان جميع الفضائل .

وقد يقوّم بعضُهم بعضاً بالمال . فيقولون : فلان يساوى كذا وكذا مالا .

وقد يقوّم بعضهم بعضاً بالرذائل ، فيقولون : فلان أقدر الخلق على الرياء ، وفلان أقدرهم على النفاق ، وفلان أقدرهم على الغش ،

وفلان أقدرهم على الكذب ، وفلان أقدرهم على إيذاء الخلق ، وفلان أفسد خلق الله ، وفلان خائن ، يبيع دينه ودنياه بأقل ثمن ، وفلان جمعَ نصفَ الرذائل ، وفلان أحاط بها جميعاً . وهكذا .

وقد يقوّم بعضُهم بعضاً بالعقل . فيقولون : فلان ربع عاقل ، وفلان كامل العقل .

وقد يقوّم بعضُهم بعضاً بالعلم . فيقولون : فلان ربع عالم ، وفلان نصف عالم ، وفلان كامل العلم .

وقد يقوّم بعضُهم بعضاً بالنسب . فيقولون : فلان شريف ، وفلان حسيب ، وفلان عصامى ، وفلان هجين ، وفلان مقرف .

وقد يقوّم بعضُهم بعضاً بالوزن . فيقولون : فلان وزنه كذا وكذا رطلا وهكذا .

فقالت ترب : ما أكثرَ موازينهم ! فقالت تربى العاقلة : أليسوا عمالقة ؟ فقالت الترب : ألكونهم عمالقة يجب أن تكثر موازينهم ؟ فقالت تربى العاقلة : للعمالقة أحكام قلت : بل لهم ظروف وحالات هى التى استدعت كثرة الموازين . فقالت الترب : كيف تختلف الموازين باختلاف الأحوال ؟ فقلت : عند ما يكونون فى حالة توحّش وعدوان يقوِّمون بميزان القوة .

وعند ما يكونون فى حالة غَفلة عقلية وخلقية يقوّمون بالمـال .
وعند ما يكونون فى حالة انحلال واضمحلال يقوّمون بالرذائل .
وعند ما يكونون فى حالة ارتقـاء وازدهار يقوّمون بالفضائل .
وعند ما يكونون فى حالة سمو فى الفكر والعقل يقوّمون بالعقل وهكذا . . . .

فقالت الترب : عجباً لهم ! وكيف يقبلون بهذه المتناقضات ! ،
فقلت : أيتها العزيزة : إن الضلال لا يأتيهم من خارج إنه يأتيهم من أنفسهم . إن الحالة التى يكونون عليها هى التى تفرض عليهم المتناقضات فيقبلونها صاغرين . ألست تَرَينَ أنّ الجائع لا يفكر إلا فى الطعام ، والخائف لا يفكر إلا فى الأمان ، والمهزوم لا يفكر إلا فى النجاة ؟ فالجائع يرى الشبع مثلَه الأعلى ، والخائف يرى الأمان أمنيته الكبرى ، والمهزوم يرى النجاة غرضه الأسمى . ويرون كل من كان حائزاً مافقدوه أسعد خلق الله حالا ، وأكملهم خَلْقاً وخُلُقاً ، ويضعونه فى المرتبة العليا ، ثم ينحدرون درجة فدرجة . وهذه هى فتنة الحالات التى تُورث تعدّد الموازين .
فقالت تربى العاقلة : أو ليس يصح أن يكون للعملاق قصد . من تعدد حالاته ؟ قلت : إن كان العملاق مختاراً فى وجود تلك

الحالة ، فنَعَمْ . و إن كان مقهوراً ، فلا . قالت الترب : إذن قد تفرض عليهم حالات ؟ قلت : نعم قد يُفرض عليهم أن يزنوا الناس بغير موازينهم . فيضعون الجاهل فوق العالم ، والشرير فوق الفاضل ، والظالم فوق العادل ، والجاحد فوق المؤمن ، والخائن فوق المخلص ، والقاعد فوق الساعى .

فقالت : أف .... فقلت : ولكن هذه حالات لا تدوم ....

فقالت تربى العاقلة : ولو قدر لك أن تضعى ميزاناً صحيحاً دقيقاً ، ثابت الأوزان ، فكيف تقوّمين ؟ قلت : أيتها الأخت ، ليس المخلوق جسما مسطحاً حتى نزنه بميزان واحد . فقالت ترب : إذن تجوّزين تعدّدَ الموازين وتناقضين نفسك ؟ قلت : لا . إن المخلوق فى نظرى جسم ذو حجم يقوّم كسائر الحجوم ، بالطول والعرض والعمق . فقهقهت الترب طويلا . فقلت : رويدك أيتها الأخت ، لا أقصد حرفيّة ما أقول . أقصد إن للمخلوق ثلاثةَ جوانب . جانب هو العقل ، وجانب هو الخلق ، وجانب هو الإشعاع .

إن العقلَ منحةٌ عظيمة . ولكن العاقل إنْ تجرد من الخلق فعقله كالعدم . والعكس بالعكس . أمّا الإشعاع فمثله واضح من

الأضواء . فَضوْء يُشع لمسافة ميل، وضوء يشع لمسافة بضعة أميال، وضوء يشع لمسافة أميال كثيرة . فالعاقل العظيم الخلق هو فاضل بنفسِه ولنفسِه ، ولكنه يُقاس فى نظرى بإشعاعه . فإن كان يفيد أسرته فهو نوع . و إن كان يفيد عشيرته فهو نوع آخر . و إن كان يفيد أمته فهو نوع ثالث . و إن كان يفيد الأمم المجاورة فهو نوع رابع . و إن كان يُفيد الخلق جميعاً بلا استثناء فهو أشرف الأنواع و أفضلها . و إن تجرَّد من الإشعاع كان كالركيزة فى المَنْجم لا تضرُّ ولا تنفع .

فقالت ترب : أو يكون هذا الميزان ثابتاً فى مختلف الحالات ؟ فقلت : نعم ، هو فى نظرى ثابت ، قالت ترب : أهذا واقع ؟ وما كدت أفتح فمى حتى مَرَّ بنا شيخ ُعملاق ، ففَزِعت الأتراب وأسرعت إلى المأوى ، وظللت فى مكانى ... ثم تذكرت الأعزاء فصحت بهم أن ادخلوا المأوى ، فدخلوا ، وما أبرئ نفسى من الخوف ، فأنا أضعف من أن أردَّ القدر إذا أقبل . ومر الشبح بسلام ، ولكن الخوف وسوس فى صدرى . فهذه أول مرة يدنو شبح العمالقة من المأوى ، وأول مرة نستشعر الخوف فى حمانا ، ومن لنا اليوم وقد فقدنا الزوج ، وعزّ النصير ؟ ؟ .

٢٥

ظللنا بعـد ذلك الحادث الذى وقع لى مع العمالقة أياما لا شغل لنا إلا ذكر العمالقة ، وتصوّر أحوالهم . ويظهر أن الأتراب استمرأن الحديث عنهم ، ورغبن فى الإطالة والتفصيل ، وكنت فى أحاديثى عنهم أعتمد على القياس والاستنباط . وكان الأتراب يعجبن لما أقص عليهن حتى يذهب بهن العجب إلى حد الاستنكار والاستهجان . ولا أدرى لم كانت تربى العاقلة أشدّ الأتراب عجباً ، وأكثرهن شكا بما أروى من غرائب أطوارهم . ولعلها كانت تقدر أن عقول العمالقة على قدر أجسامهم ، ولا يجوز أن يسكن الجسمَ الضخمَ الا العقلُ الضخم ، وهذا ولا شك وهم ، ففى عالمنا عمالقة آخرون ، أصحاب قامات طويلة ، وأجسام مهيبة كالجمال والبغال والحمير والخيل وما إليها ، وليس فيها ما يدل على ضخامة عقولها . ولما ذكرت ذلك لتربنا العاقلة قالت : وما أدراكِ أن الجمال والبغال والحمير ليس لها عقول أعظم من عقول العمالقة ؟ إن ما تذكرين من غرائب العمالقة وترّهاتهم وضلالاتهم ليحطهم عن قدر العمالقة الآخرين ، فقلت : أيتها الأخت ، إنى لا أحدثك

الإحساس في الرأي لعدم الخروج من المأوى

عن خبرة عامة شاملة ، وإنما أعتمد على القياس والاستنتاج ، ومن يدرى ؟ لعلنى إن زدتُ اختبارا زدتُ ثقة بصحة ما أقول ، ولكن ألست ترين أن العمالقة هم الذين يسخرون الجمال والبغال والحمير وما إليها لأنفسهم ؟ ولو كانوا دونها عقلا لما سخّروها ، بل لكان الأمر بالعكس . فقالت ، أنت تحيلينني على ما رأيت ، وأنا ما رأيت شيئاً ، وما أدرى أيركب العملاقُ الحمار أم يركب الحمارُ العملاق ، ولذلك لا أستطيع أن أثبت أو أنفى ، ولكنى أذهب مذهبك فى القياس والتقدير ، ولا يمكن لعقلى أن يتصور أن العمالقة الآدميين أكبر عقلاً من تلك التى ذكرت . قلت : إنك يا أختى طيبة القلب ، كبيرة النفس ، ولو قُدِّر لك أن تخرجى من مأواك هذا لرأيت العجب العجاب ، فقالت : نعم إنى لم أخرج من مأواى هذا قط ، ولشدَّ ما أُحبُّ أن أضرب فى الأرض ، وأختبر سلوك الخلق وطبائعهم . قلت : ليتنا نصطحب فى جولة ، قالت : ولكنى لا أجرؤ على الخروج ، وأرى طرفى يرتد حسيراً حين يرتفع إلى مخلوق من المخلوقات خارجَ المأوى . قلت : أيتها العزيزة ، لم يخلقك الله للمأوى ، ولو شاء ذلك لخلقك معطلة الحركة ، ولكنه ركَّب فيك قوَّة السير والسمع والبصر ، لتمشى

وترى وتسمعي . وإن التزام المأوى تعطيلٌ لقوى ركبها الخالق فيك ، بل هى جحود لنعمته ، وثورة على مشيئته . قالت : يا أختى ، أتقولين هذا وقد بلغتُ من السن عِتِيا ؟ قلت : أقول هذا ما دام فى جسمك دمٌ يدفعُك إلى الأمام والوراء . قالت : ولكن العادة هى التى تحكمت . قلت : ليس للعادة حكم مع وجود مشيئة الله ، وفطرةٍ سليمة ، فالله خلقك لتضربى فى الأرض ، والفطرةُ تكوّنت وفقَ المشيئة الإلهية ، وكلُّ عادةٍ تُخالف المشيئةَ والفطرة فاقذفى بها إلى جهنم . قالت : لله ما أبرعك فى الإقناع ! وأحسب لو أن الخلق يسيرون حسب ما تُوحيه إليهم عقولهُم وفطرتُهم لانقلبت نظمُهم وتقاليدُهم جميعُها رأساً على عقب . ترى كيف يسير الخلق الآن ؟ أبحكم عقولهم وفطرتهم أم بحكم فطرتهم دون عقولهم ؟ قلت : إنهم تارة يسيرون وفق العقل والفطرة ، فتستقيم أمورهم ، وتارة وفق العقل دون الفطرة ، وتارة وفق الفطرة دون العقل ، وتارة ضد الفطرة والعقل معاً ! ولذلك فهم فى تناقض واضطراب وسوء حال ، قالت : أيتها الأخت ، لشَدَّ ما أُحب أن أرى الخلقَ يسيرون بأحكامك مدة من الزمن . لأرى كيف يكون حالهم . قلت : ليت ... وليت لا تُغنى ، إنما يغنى العمل

والتفتنا صوب الساحة ، و إذا الحب يكثر . فقالت : أبشرى خيراً ، لقد بدأ الخلق يسير وفق هواك .

وأوينا إلى مضاجعنا مبكرين ، وقد نعمنا بالطعام والشراب . وفى صباح اليوم التالى شعرنا بحركة غير مألوفة خارج المأوى ، ففزعنا . و بعد قليل فتح الباب ، و إذا بعملاق يدخل المأوى وفى وجهه شر مروِّع . فتراكضنا فى المأوى وهبّ الأولاد من نومهم مذعورين أشد الذعر . وجالت يدُ العملاق فينا جولة الإرهاب . فقبضت على أترابى جميعهن الواحدة بعد الأخرى . فصحنا وصاح الأولاد ، والعملاق منصرف عنا . و بعد أن خرج نفر الأولادُ مسرعين نحو الساحة ، وخرجتُ وجسمى يرتعد من الذعر . وأخذت أتفقد الأعزاء واحداً واحداً ، فإذا هم جميعاً فى الساحة فجمعتهم وحاولت أن أُزيل ذعرهم ولكن من أين للمذعور أن يطمئن المذعور ؟ ومن أين للموتور أن يواسى الموتور ؟ لقد حلّت بنا مصيبة تجل عن العزاء والتواسى . تجلدت فى ساعة يعزُّ فيها التجلد ، وتصبرت فى ساعة لا يجدى فيها الصبر . قال الأعزاء والدموع تنهمر من عيونهم : إلى أين سيقت أُمنا ونساؤنا ؟ فأخذت أترضاهم بذكر ألطف الاحتمالات وقلت : لعلهم نقلوا

إلى مأوى آخر . فقالوا : كيف يُشتت الشمل ، ويُحال بين الأم والأبناء ؟ وأيا كان المكان الذى يسقن إليه فإنهن لن يعُدن إلينا . قلت وقد أعجزتنى الحيلة وخاننى المنطق : ذلكم ظلم العمالقة ، ولا حيلة لنا سوى التذرع بالصبر والركون إلى القدر

لله ما أقسى الدهر ! هـذه أسرة آمنة وديعة ، تبطش بها يد عملاق فتهد أركانها وتزلزل كيانها ، وتورثها الحزنَ والألم فى غمضة عينْ . ماذا جنت هذه الأسرة حتى تحل فيها النقمة والبطش ؟ وماذا اقترفت من ذنب حتى تعاقب أقسى عقاب ؟ إنى وحدى أعلم أين سيق الأتراب . فقد لمحت فى عين العملاق شراً يشبه بريق السكين الحادة . إن القتل جريمة لا تغتفر . ليتنى صدقت تربى العاقلة حين قالت إن عقول الجمال والحمير والبغال أكبر من عقول أولئك العمالقة . ليتنى صدقتها فأرضيتها وأرضيت الحقيقة التى نطقت بها . أنا التى بلوتُ العمالقة ، ولمست مساوئهم ووقفت على حقيقة حالهم أُخالف تربى العزيزة فى الحكم عليهم وهى التى ما بلت شرّهم ، ولا ذاقت حلوهم ومرهم ! أنا التى أعتمد على القياس والاستنتاج أُناقض نفسى بنفسى وآبى أن أقبل حكما تدعمه المشاهدة ويؤيده الاختبار .

وامصيبتاه !.. واثكلاه !.. أحقاً سنبيت فى مأوانا والأتراب فى غير دنيانا ؟ أى مأوى يسعنا ؟ وأى دنيا تتسع لأحزاننا وآلامنا ؟ أى ماء يستساغ ؟ وأى طعام يستمرأ ؟ بل أى حياة تطاق بالفراق وشتات الشمل ؟ إنى أُحس أن جلدى لا يسعنى ، وأن دمى يكاد يتفجر فى عروقى .

من لهؤلاء الأولاد ؟ ومن لى لنفسى ؟ ولكن ، على عاتقى مسئولية لا أستطيع أن أغفل عنها ، لقد ألزمت نفسى المحافظة على هؤلاء الأعزاء ، وأنا الآن أشعر بأن مسئوليتى تضاعفت ، فقد وُضع فى يدى وحدى مصيرُ أرواح بريئة .

إلى المأوى يا أعزائى لقد أقبل الليل ، إلى المأوى ، ففى ظلمة الليل سَكنٌ للثكالى واليتامى ، إلى المأوى من شر الزمان .

٢٦

اشتد ألم الأولاد لخطف الأتراب وانقلب إلى حقد حاد . والحقد يتفجر فى صورة عداء أو صراع . وكم مرة حاولت أن أعالج الألم لأمنع تطوره إلى صراع أو عداء ، لأنى أعتقد أن كلا هذين المظهرين يخرجهما الطغيان من حكم العقل إلى حكم العاطفة

وويل للعاطفة إذا تحكمت فى شر . فإنها تبيح كل ما يأباه الخلق والمنطق والقوانين العامة . وقد كانت سوْرة الفتوة تعين على تأصيل الحقد . ولم تكن الأيام لتعيننى على تخفيفه ، لأن آثار الأتراب فى المأوى والساحة كانت أبلغ من أن تمحى ، ولأن الحقد مرض عضال يزداد مع الأيام

ويظهر أن مبالغتى فى معالجة الحقد دفع فريقاً من الأولاد إلى التشاور سراً فى أمرهم ، والاتفاق على الانتقام من العمالقة . واستطاع الأولاد جميعاً أن يجمعوا رأيهم ويوحدوا خططهم ، وزعّموا عليهم واحداً عُرف بأنه أكملهم عقلاً وأشجعهم قلباً ، وأجملهم خلقاً . إن هذا الذى زعموه يُعطيك وجهه صورة فتى رشيق فاتن كامل الُحسن . ويلاه من عينيه إن نظر ! وويلاه من طلعته إن أقبل ! وويلاه من صوته إن تغنى أو تحدث ! أما عقله وقلبه فكعينيه صفاء وحدة ونفاذا

وفى الصباح الباكر فتح الأولاد باب المأوى فى غاية الرفق والاحتراس ، وأخذوا يتسللون منه الواحد تلو الآخر . وهم يظنون أنى غافلة عنهم بالسبات العميق . وما دروا أنى اتخذت من عينى ديدبانا عليهم ، وأنى شعرت بحركاتهم منذ فتحوا الباب إلى أن

خرجوا . فارتبت فى أمرهم ، ولحقت بهم قبل أن يصلوا إلى الثغرة المعهودة التى أقاموها فى الجدار . وما رأونى حتى بهتوا . فعدوت إلى الثغرة وسددتها بجسمى . وقلت : إلى أين أيها الأعزاء ؟ فلم يجيبوا . فقلت أخبرونى إلى أين تذهبون لأذهب معكم ، أو يصح أن تغادرونى وراءكم فى المأوى ؟ فاحمرت وجوههم خجلا . ولكنهم التزموا الصمت . فأقبلت نحو زعيمهم وقلت : أيها الحبيب ، ما تعودتم أن تكتمونى أمراً ، وما تعودت أن أكتمكم أمراً . فأخبرنى الآن إلى أين تذهبون فى هذا الصباح المبكر ؟ فقال ليس فى كتماننا أمرنا ما يحط من مقامك عندنا . فأنت أيتها العزيزة لنا فى مقام الأم والأب . وما كنا لننسى صنائعك ولكننا نريد أن نقضى حاجة من دونك . وسنعود إليك قريباً فقلت : إن كنتم تتخذونى أبا وأما فلا ينبغى أن تبرموا أمراً دون اطلاعى . ولست أبيح لنفسى أن أخالفكم فيما عزمتم عليه إن كان فيه صلاحكم . فقال أحد الأولاد : لنطلع أمنا على ما عزمنا عليه . وسرت كلمته بسرعة فى رفاقه ، فقالوا جميعاً بصوت واحد : نعم لنطلعها. فتقدم الزعيم وقال : أمنا العزيزة، عزمنا على الانتقام من أولئك العمالقة الطغاة الذين انتهكوا حرمة بيتنا ، ووترونا فى

المستضعفين منا ، ولو أنهم تعدوا علينا لما بلغ الجزع والألم هذا المبلغ . فقلت : هل فكرتم فى قوة العمالقة ؟ قال : فما ينبغى للموتور أن تمنعه قوة خصمه من الثأر ، إن العمالقة سلبوا نفوساً عزيزة وتركوا نفوساً رخيصة ، وبذل الرخيص فى سبيل الغالى ما يحتاج إلى فكر . فقلت : وإن قضى عليكم العمالقة فتخسرون خسارة مزدوجة . قال : لا خسارة فى سبيل أداء الواجب . قلت : ألا تريدون أن تؤدبوا العمالقة لتقتلعوا من نفوسهم أصول البغى والعدوان ؟ فصاحوا جميعاً . بلى قلت : إن عملكم سيقوى فيهم العدوان . فظهرت الدهشة على وجوههم ، وقالوا : كيف ؟ قلت : لأن مقابلة الشر بالشر والظلم بالظلم والعدوان بالعدوان ستؤدى إلى نتيجة واحدة لا شك فيها . قالوا : ستؤدى حتما إلى الانتقام ، وهو النتيجة التى نريدها . وأثارت كلمة الانتقام نفوسهم وتدافعوا يطلبون الثغرة . فقلت : رويدكم أيها الأعزاء ! لن تكون النتيجة الانتقام ؟ إنها ستكون إعلاء شأن الظلم والطغيان . فالتفت بعضهم إلى بعض دهشين وقالوا : كيف ؟ قلت : ستكون النتيجة المحتومة أن يصرعكم العمالقة ، وعندئذ يكون الظفر للقوة . أفتريدون أن تتحكم القوة فى الخلق ؟ أم تريدون أن يكون

الحكم للحق وحده ؟ ومن جهة ثانية إن علاجكم الذى ترتأونه لا يجديكم نفعاً ، ولا يوصلكم إلى حق ، لأن العمالقة ستستفز قوتهم وتستثار حميتهم ، فيمعنون فى البغى والعدوان، فتكونون قد أعنتم الظلم على غيركم من الخلق من حيث أردتم أن تكافحوه . فرأيت على وجوههم أمارات الهدوء ، فقلت : إن كنتم تريدون أن تنتقموا حقاً فأنا معكم . فقالوا جميعاً : نعم نريد . . . نريد . . . فقلت : فاسلكوا السبيل الذى أرسمه لكم ، فقالوا : ما هو ؟ قلت : هو سبيل واحد لا ثانى له . هو أن تنشروا المبادىء السامية التى تصور الطغيان والبغى والظلم أصدق تصوير ، وتدعو الخلق إلى مكافحتها أشد مكافحة . ما من مخلوق فى هذا الوجود يستطيع أن يعيش فى أمن وسلام إن كان الحكم للقوة . وما من مخلوق يتأخر عن بذل كل مستطاع فى سبيل إزالة حكم القوة . إن الله برأ الخلق للتعاون ، وحكم القوة لا يحقق تعاوناً ما فى العالم . أيها الأعزاء ، إن الفاجعة التى حلت بكم ، حلت بى ، بل كان نصيبى منها أضعاف نصيبكم ، ولو كنت أعلم أن الانتقام يشفى ما بنفسى شفاء تاماً ، بأن يهد أركان الظلم من أساسها ، لما تأخرت عنه . إن الانتقام من الخصم القوى المستبد يورث هلاكنا ، ويعزز

فيه البغى والعدوان وهذه نتيجة يجب أن نتجنبها . ونظرت إلى وجوههم ، وإذا الجمرات التى كانت تتقد فى عيونهم قد همدت فقلت : تعالوا نبحث السبل التى يجب أن نسلكها ، فقال أحدهم : وهل هذه الحادثة التى وقعت لنا تكررت ؟ قلت : كثيراً ، ففى كل بقعة فى هذه الدنيا قوى وضعيف ، ظالم ومظلوم ، واتر وموتور ، معتد و برىء ، ولو قدر لكم أن تسيحوا فى الأرض لاختبرتم بأنفسكم ضروب العدوان ، ولثارت عاطفة الانتقام فى نفوسكم مرات كل يوم ، ولكنتم بلوتم من ضروب الظلم أشكالا وألواناً ، فهناك ظالم يظلم بالقوة دون تستر ، وظالم يطغى و يتجبر منتحلا المعاذير ، وظالم يتترس بالحق . وهو أبغى البغى ، هذه ضروب من الظلم لن تعالج بالانتقام الذى ائتمرتم عليه فى أول الأمر ولو كان خصمكم فى قوتكم أنتم . أما ترون فى كلامى هذا نصحاً لكم وتأييداً لغرضكم الأسمى ؟ قالوا جميعاً : نعم ، فالتفت إلى زعيمهم وقلت : وأنت أيها الحبيب ، ألم تعلم مقدار حبى لكم ؟ لقد نشأتم فى أحضانى ، وسعدت بعشرتكم مدة طويلة ، و بنيت عليكم الآمال ، وأوقفت عليكم الرجاء ، وأردت لكم أن تسعدوا وتُسعدوا . فكيف تريد أن تهدم ما بنيت ؟ وتخيب ما رجوت ؟ أهذا جزائى ؟

فنظر إلى بعينين مغرورقتين بالدموع وقال : يا أماه ، ما أردنا بك شراً ، وما كتمنا عنك عزمنا إلا لنجنبك التهلكة من دوننا ، فقد كنا نعلم أنا واردون سبيل الهلاك ، فأردنا أن نرده وحدنا . إنك تعلمين أنك أعز علينا من أرواحنا ، و إن شئت فدونك التجربة فاصطنعيها . فما تمالكت أن هجمت عليه وقبلت عينيه وقلت له : إن حياتكم أعز على من حياتى ، بل هى أعز ما أحرص عليه فى هذا الوجود . وإن كنت أفرط بأرواحكم فسأفرط بروحى قبلكم . إنى أرى أرواحكم مشاعل نور ستضىء العالم أجمع . ولن يخبو نوركم قبل أن أرى ضياءه قد شع فى جميع أطراف العالم . إن الحياة هبة غالية من الله ، ولكنها تنقلب إلى أرخص قنية حينما تبذل فى سبيل مرضاة الله ، ومرضاة الله لن تكون إلا بنشر العدل والحق والسلام بين جميع المخلوقات .

٢٧

لقد توطدت بينى و بين الزعيم محبة لا أدرى كيف أصفها . إذا رأيته لمع فى قلبى بريق يضىء بين جوانحى . و يملأنى بهجة وطرباً . و إذا غاب عنى شعرت بظلمة فى قرارة نفسى . فلا

يستقر لى مقام ، ولا أرضى عن شىء مما أراه حولى . فكأنى أفقد نفسى و بصرى وسمعى و إحساسى ، ولا يردها أحد سواه . ومع أنى أشعر بحب عميق لجميع الأولاد ، وأرى فيهم أمانىّ التى كرست حياتى من أجلها . فإن حبى للزعيم من نوع آخر . إنى أنشرح برؤية الأولاد ، وأطمئن إلى وجودهم بجانبى ، وأطرب لمداعبتهم . ولكن ليس من بينهم أحد يستولى على قلبى ، وينتزعه من أضلاعى إذا شاء ، و يرده إلىّ إذا شاء سواه . فما هذا الذى أشعر به نحوه ؟ وما حقيقته ؟ أهو إعجاب بعقله الراجح ، وشجاعته النادرة ؟ أهو تقدير لما يتحلى به من جمال الصورة ، و بهاء الطلعة ، ورشاقة الحركة ؟ أهو تأثر بفعل ما فى عينيه من بريق نافذ ونظرات ساحرات ؟ الحق أنى لا أدرى . فأنا التى أستشعر بمواهبى وأعتز بمبادئى ، وأثق بخالقى ، أنا التى فاديت براحتى وحياتى فى سبيل المثل العليا ، أقف الآن حائرة مستسلمة أمام ظاهرة طرأت علىّ منذ أيام قليلة ! أنا التى كنت أعتقد أنى أستطيع أن أحل المشاكل ، وأفك الألغاز ، وأجلو الغوامض ، أقف الآن عاجزةً عن حلِّ أمر يتعلق بنفسى وحدها ! .

كان أول عهدى بهـذا الشعور الغريب ، ذاك اليوم الذى

ائتمر به الأولاد على الانتقام . فمنذ تلك الحادثة التى اضطررت فيها إلى توجيه حديثى إلى الزعيم ، وأنا أشعر بنمو عاطفة فى سويداء قلبى . كانت النظرة الأولى إعجاباً محضاً ، وتقديراً محضاً . ثم انقلبت إلى حب فوله ذى تباريح . أمَّا كيف انقلب الإعجاب إلى حب فما أدرى . وكل الذى أذكره بشىء من اليقين هو أنه استولى على قلبى استيلاءً تامًّا .

لقد عرفته فى أول الأمر جملةً ، فرأيته واحداً من أولئك الأعزاء الذين احتضنتهم وأوقفت عليهم جميعَ أفكارى وآمالى . ثم حينما أحببته صرتُ أعرفه جزءاً جزءاً . أنظر الى عينيه فأراهما كوكبين ساطعين ذوَىْ إشعاع يملأ الدنيا نوراً وسناء . وأنظر إلى فمه فأرى خلاصة العاج قد استدق وملُس وسُوِّىَ فى أجمل صورة . وأنظر الى عُنُقه فأرى غصنا رطيباً كساه ورقُ المنثور ، وعطَّره أريجُ الياسمين . وأنظر إلى قدميه فأرى حَبْك الجواشن ركبتْ غُصْنى ورد أرجوانى اللون . وأستمع إلى صوته فأسمع أعذب الألحان تنبعث من قيثارة داود . كل شىء فيه وكل شىء منه يوحى إلىَّ أجملَ ما وقعت عليه عينى وسمعت به أذنى .

وما أشك فى أنه يحترمنى ويجلنى من أعماق قلبـه . أما أنه

يشعر نحوى بما أشعر به نحوه فأمر ما أستطيع أن أقطع فيه . لعله يضعني موضَع الأم من نفسه ، ولعله أيضاً يحبّني حبّ الابن لأمه . ولكني أحبه حُباً يختلف عن حب الأم لابنها . أحبه حبي لزوجي ، أحبه بعواطفي ودمى وأعصابى . وهو من جهة ثانية يرى ما بيني و بينه من خلاف فى السن فيرانى أكبره بشهور عديدة . نعم إنى لست من سن أمه . وحرارةُ قلبي تُنبئني أن الاختلاف بيننا ليس بالحدّ الذى يحول دون تمازج الروحين . ولكن أهذا يا تُرى من تصور الخيال؟ وما يجدى قولى هذا إن كان هولا يُبادلنى حبى؟ فأنا لو كنت أصغَر منه سناً فلست بكاسبة قلبه ، إن كان هو لا يعطيني إياه طوعاً . فالعمر ليس عاملاً من عوامل التفرقة بين قلوب العاشقين . فقد يُحب كبيرٌ صغيرة ، وتحب كبيرةٌ صغيرا . والعاشق لا يجعل العمر شرطاً لعشقه .

فاض حبى فى يوم من الأيام . وقسا علىّ فسلبنى الصبر والقصد . فما تمالكت أن خلوت به فى جانب من جوانب الساحة . ولم أجد عناء فى هذه الخلوة ، فكأنه كان ينتظر إشارتى ليخلو بى . فجلسنا متجاورين ، وعنقُ كل منا ينحرف فى اتجاه صاحبه . وبادأته الحديث فقلت له : ياحبيبى ، أتدرى لم

استدعيتك الى هنا ؟ فابتسم وقال : لا . فنظرت الى عينيه نظرة طويلة أستلهم منهم القدرة على الكلام . وقلت له : تفكر لعلك تعرف . فرمى ببصره إلى الأرض وقال بعد تأمل : لعلك تريدين أن تكلفيني عملا دون سائر إخواني . فاضطرب قلبي اضطرابا شديداً . وشعرت بأن عقلي قد خلا من كل شيء ، وأن عقيدتي التي أوقفت عليها حياتي قد ملأت ذلك الفراغ جميعاً . وماعدت أرى أمامي شيئاً سوى تلك العقيدة . فكأن حبي قد غاض وخرج من قلبي ، وعدت إلى حالتي القديمة قبل أن أشعر بالحب . فأشحت بوجهي عنه ، وجمعت شعوري وتفكيري في لحظة رهيبة . وقلت في نفسي : إنه ينظر إلى كأمه وأبيه ومرشدته ، ويتوقع أن أكل إليه عملا في سبيل تلك العقيدة السامية . إذن لأكتم حبي ، بل لأنتزعه انتزاعاً من قلبي ، ولأروض نفسي على التبتل ، ولأحدثنه في الموضوع الذي يتوقعه . فوقفت ثم ابتعدت عنه قليلا ، ثم جلست ونظرت إلى وجهه لأجاريه في الحديث عن الموضوع الذي فكر فيه . ما كادت عيناي تقع على عينيه حتى غاضت العقيدة ، وغاضت المبادىء ، وعادت إلى قلبي نيران متأججة . وطغت سورةُ الحُبّ على نفسي ، فقمت مضطربة

أشد الاضطراب وجلست مجلسى الأول ، ومددت يدى وأمررتها على وجهه الجميل وقلت له : يا حبيبى ، أنت : . . أنت . . . وأمسكت . قفل فمى وعدمت النطق . فقبض على يدى ، والبشر يتلألأ فى وجهه وقال : أيتها الحبيبة . . . وظلت يدانا متماسكتين لحظات شعرت أننا أتصلنا فيهما اتصالا روحيا ، وتفاهمنا جملة وتفصيلا . وأطرقت ، وأطرق . وأظن أنه همَّ أن يتكلم ، ولكن قدوم الأعزاء علينا فى تلك اللحظة حال دون الكلام . ليتهم تأخروا قليلا حتى أسمع صوتَ حبيبى مرة أخرى . ولكن ليت لم تُجد مرة واحدة فى جميع الحالات . أفتجدى الآن ؟

فقمت وتبعنى واختلطنا بالأعزاء ، وسرنا جميعاً نبحث عن الحَب السمين فى الساحة .

ومرت أيام وفى نفسى صراع عنيف سلب السهاد من عينىّ فى الليل ، والراحة والطأنينة من قلبى فى النهار . كان الصراع بين عقلى وقلبى . ويعلم الله ما بلوت من جهاد واضطراب فى أثناء الصراع . كنت أود أن يَصرع أحدُهما الآخر بلا رحمة ، وأن يخلص لى واحدٌ منهما . ولكن القوتين كانتا متكافئتين ، فتارة أشعر أن عقلى تغلب وانتهى الأمر ، وتارة أخرى أشعر

أن الغلبة لقلبى ، وأن عقلى مصروع لا محالة . ما شعرت باليقين فى غلبة أحدهما على الآخر فى حالة من الحالات . كان عقلى يقول أنا الغالب . لقد قمت على أساس مكين من المبادىء السامية . ولست وليد اللحظات ، و إنما أنا وليد أيام وشهور وقد عانيت المصائب والأهوال فنشأت كأقوى ما يكون مخلوق من الصلابة والإيمان . ولن أتراجع ، ولن أستسلم . و يقول قلبى : أنا الغالب ، لأنى ابُن القفطرة والغريزة ، وهما خالدتان . نعم إنى ابن الساعة ، ولـكن أصولى راسخة فى أعماق النفس منذ نشأت الحياة . فأنا لست وليد الساعة ، ولـكنى وليد الحياة نفسها ، أخلق معها ، وأموت معها . ليس الصراع جديدا فقد ورثته عن آبائى وأجدادى منذ ظهرت الخليقة ، وسيكون لى الظفر كما كان لأسلافى من قبلى .

بمثل هاتين اللغتين و بمثل هذه الحجج المبينة كان ينطق كل من عقلى وقلبى فى أثناء صراعهما العنيف . وأنا بينهما كالريشة فى مهب الريح ، يقذف بى هنا وهناك بقوة . اللهم كن فى عونى وأرحنى من هذا البلاء الذى تملكنى واستذلنى .

٢٨

ولما لم يتسع صدرى للصراع العنيف الذى شبّ فيه ، رأيت أن أخرج إلى الطبيعة ، أستعين بفضائها الرحب على تخفيف الضيق الذى أَلَمَّ بى . فكنت أخرج مع الأعزاء كل صباح نتريض ونلهو مستعرضين كل ما تُنبته الطبيعة من مختلف النباتات والأزهار .

لقد عجب الصغار لهذه المخلوقات النباتية التى لا يحصيها عد . فمن أقحوانة ناصعة البياض ، متناسقة الأجزاء ، ملتفةٍ حول زر أصفر فاقع لونُه . إلى شقيقة من شقائق النعمان عريضة الأوراق ارجوانية اللون معقودة حول زر أسود منمنم . الى زنبقة ناصعة البياض محلاة من أسفلها بلون أصفر ، ذات أريج فيّاح . إلى قرن غزال زهرية اللون طويلة العنق مركبة على ساق رقيق ذى لون أحمر . الى ما لا يُحصى من الأزاهير العجيبة الشكل واللون والرائحة .

وقد فطن أحد الصغار إلى اتساع الأرض لهذا الكثير من الأزاهير فقال : أمّاه ، أيقع خصام بين هذه الأزهار ؟ قلت

ولِمَ يقع ؟ قال ألا تستأثر زهرة بمكان خُصِّص لغيرها ؟ فضحكت وقلت : إن هذه الأزهار تنبت وتحيا بوحى الفطرة ، والفطرة عاقلة ، فإذا وجدت زهرة أن المكان ضيق انحنت قليلا ونبتت فى مكان آخر . قال: وكيف ترضى الزهرة الأخرى عن مجاورتها ؟ قلت : إن الفطرة هى التى توزِّع التربة على الأزاهير ، وهى التى تكفل لها الحياة ، وهى أعقل من أن تحدث ازدحاما يسبب نزاعا بين مختلف الأزاهير .

واسترعى لونُ شقائق النعمان الأحمر والأسود نظرَ آخر من الأعزاء ، فأطال النظر فيها وقال لى : أمّاه ، كيف اجتمع الأحمرُ والأسود فى زهرة واحدة ، ألا يفاخر أحدهما الآخر ؟ قلت : إنى لأعجب لكم أيُّها الأعزاء كيف تفرضون الاختلاف والخصام فى كل شىء تقع عليه عيونُكم ، كأنكم تفترضونهما أمراً طبيعياً لا مفر منه . إن الطبيعة أيها الأعزاء أعلى وأسمى من أن تخضع جميع مخلوقاتها لهذا النظر الضيق . إنها لا تميز ما تُنبت ، فجميع الأحياء على وجهها متساوون . فليس الأسود بأعزّ من الأحمر ، والأبيض بأحبّ إليها من الأصفر . وهى قد نوعت عن قصد ، فلِمَ نحاول إساءة فهمها ، وتأويله شر تأويل ؟ قال : وما القصد ؟

قلت : القصد إرضاء المشيئة الإلهية فى رؤية الخلق على أجمل وأبدع نظام . فلو جاء لون جميع الأزاهير واحداً وشكلها واحداً لانعدم الجمالُ فيها ، ولكانت الحياة مملّة منفرة .

عدنا إلى مأوانا عشيةَ يوم بعد نزهة جميلة ، وما كدنا نبلغ الثغرة حتى أحسسنا حركةً غيرَ مألوفة فى داخل المأوى ، فوقفنا وهممنا أن نعود خَشية أن نكون قد ضللنا الطريق . ولكننا تفحّصنا الساحة بقعة بقعة ، فاذا هى ساحتنا . فدخلنا الواحد تلو الآخر ، و إذا الساحة كما هى لم يصبها تغيير أو تبديل . ثم اتجهنا إلى المأوى ونظرنا الى داخله ، فإذا هناك مخلوقات غريبة عنا ، فولجت الباب و إذا مجالسنا مشغولة ، ففزعت وصحت : من هنا ؟ فردت على أنثى قائلة : لا تجزعى أيتها الأخت . نحن مخلوقات مثلكم حُملنا الى هذا المأوى ، ولم نعرف إين نحمل . قلت : أهاربات من ضيم وعذاب أنتن ؟ قالت : لا . إنما حملنا اليكم من بيوتنا . قلت : أتمكثن طويلاً هنا ؟ قالت : لا علم لنا بذلك . ودخل الأعزاء ، وتقاسمنا المأوى و بتنا ليلتنا فى ضيق . وفى الصباح خرجنا الى الساحة جميعاً ، ورأيت فى وجوه الأعزاء تبرماواضطراباً . وجاءوا الىّ يشكون : المأوى لا يتسع لنا جميعاً . قلت تريثّوا أيها

الأعزاء ، فليس من الخلق أن نطرد من نزل علينا ضيفا .
فقالوا : ولكن المأوى أضيق من أن يتسع لنا ولهم .

وجاء وقتُ الطعام ، وانتشر الأعزاء فى الساحة دأبهم كل يوم . وتنحيت جانباً أرقب القادمات . فإذا خلاف يدبُّ بينهن ، فهذه تستسمن حبة فما تكاد تصل إليها حتى تقفز إليها أُخرى محاولةً أن تنتزعها من فمها . وإذا الكبيرات منهن يضربن الصغيرات ، ويمنعنهن من التماس غذائهن . أشفقت عليهن ، ووددت لو تركن الخصام . فالحب كثير ، والطعام وفير . فذهبت إلى إحداهن وقلت لها : أيتها العزيزة ، لم تضربين هذه الصغيرة ؟ فقالت : يا أختى ، إن فى هذه الصغيرة سوءَ أدب لو بلوته ما أشفقت عليها . فقلتُ لها : ما رأيتُ فيها سوءَ أدب . فهى تأكل كما يأكل سائرُ أخواتها . وليس عقاب سوء الأدب — إن وجد — الحرمان من الطعام . وفيما أنا أحدثها ، إذا صراخ يعلو فى جانب آخر من الساحة ، وإذا إحدى الصغيرات تستجير من أخرى كبيرة ضربتها فى رأسها ضربة موجعة . فأسرعت نحوهما وحلت بينهما . وقلت للصغيرة : لَمَ تعتدين على مقام أختك الكبيرة ؟ فقالت : أيتها العزيزة ، ما اعتديت ، وإنما هى تريدنى

على أن أكون خادمةً لها ، أجمع لها الحبَّ بنفسِى ، وأُقدِّمُه لها غنيمة باردة ، وهى لا تريد أن تسعى بنفسها وتتناول طعامها بجِدِّها. فقلت : يا للعجب ! أبلغت الأنانية إلى هـذا الحدّ ؟ وأمسكت بالكبيرة وقلت لها : أيتها الأخت ، الأرض فسيحة والحبِ كثير، فلم لا تتناولين بغيتك بنفسك ؟ فضحكت وقالت : ولِمَ خُلِق الصغار ؟ قلت : خُلقن للسبب الذى خُلق من أجله الكبار . قالت وقد رفعت رأسها متعالية : وما هو ؟ قلت : السعى . قالت هذه فلسفة جديدة ماعرفتها من قبل . قلت : ولم خُلقن إذن أيتها العزيزة ؟ قالت : خُلق الصغيرات لخدمة الكبيرات. قلت فى كل الحالات ؟ قالت : أجل . قلت : ولم ؟ قالت لأننا نشأنا على هذا . فهل يصح أن أشقى فى صغرى وأبلو قسوة الكبيرات علىّ ، ثم أشقى فى كبرى أيضاً ، بأن أسعى فى طلب الرزق وحدى ؟ أليس من المعقول أن أُعامل الصغيرات كما عاملتنى الكبيراتُ حين كنت صغيرة ؟ أو ليس الحكم للعرف والعادة ؟ قلت : رويدك أيتها الأخت ، ليس الحكمُ للعرف والعادة ، الحكم للحقِّ وحده . فضحكت ضحكة طويلة ، رنّ صداها فى أعماق نفسى ، وقالت : عِشْ رجباً تشهد عجباً ! وغادرتنى وهى تخطر

بكبرياء وصلف . كان وقع كبريائها على نفسى أبلغ وأشد من ظلمها الصغيرة . يالله ما أقبح الكبرياء حين يُرَكَّبُ على الظلم ! إن الكبرياء فى نفسه بلاء ، فكيف إن قُرن بالظلم ؟

دخلنا المأوى فى ذلك اليوم مُبكِّرين . وأخذ كل واحد منا مكانه المعتاد . وبعد قليل دخلت الأسرة الجديدة . ففسحنا لهافى المكان . ولكن واحدة منهن أَبت إلاَّ أن تحتل مكان الزعيم . ولما وجَدَته قد سبقها إليه أرعدت وأزبدت ، وأمرته أن يخلى المكان . فتأثر الزعيم من غلظتها ، ولكنه تأدب وقال : لست أبخل عليك بمكانى ، ولكنى كنت أُحب أن تتلطفى معى بالكلام . فصاحت قائلة : ولِمَ أتلطف بالكلام ؟ أيجرؤ صغير مثلك أن يمتنع عن تلبية طلبى ؟ فما سمع الزعيم كلامَها حتى ثار الدمُ فى وجهه . ولفت الحديث انتباهى فذهبت إليهما وقلت : ما الخطب ؟ فأطرق الزعيم ولم يتكلم . فقالت هى : أخجله المنكر الذى ارتكبه . فاستفزه الشمم ، ولكن الحياء تغلب عليه ، فقال بصوت منخفض : يا أمَّاه ، أمرتنى هذه الفاضلة أن أتخلى عن مكانى بألفاظ رأيتها قاسية فرجوتها أن تصلح لهجتها ، فتكدرت وأنَّبَتنى بألفاظ جارحة . فقالت : أعصيان ووقاحة ! عندئذ لم

أتمالك نفسي ، فقلت لها : أيتها العزيزة ، رويدك . فليس ما يوجب التعنيف . فقالت : لقد خالف أمرى ، وتواقح عليّ . قلت وبِمَ أمرته ؟ قالت : أمرته أن يُخَلِّى المكان . قلت : ولِمَ ؟ قالت : إنه مكانى . نمت فيه بالأمس ، وهو يلائم صحتى ومزاجى . فهو مرتفع عن الأرض ، وأنا تؤذينى الرطوبة . قلت : أما السبب الأول فلا أقرك عليه . وأما السبب الثانى فمعقول . وواجب على كل من فى المأوى أن يقدمك على نفسه حتى تعتدل صحتك ، فتتساوينا . فقالت : هذا حكم ما سمعناه فى حياتنا قط ، وأنا كان يجب أن أقول لك إنى أطلب هذا المكان لأني أكبر من هذا الفتى سناً ، وأسمى منه مقاماً ، وأشد منه قوة وبطشاً . قلت : أيتها العزيزة ، أنت تصدرين عن مبادىء برئنا منها فى مأوانا هذا . فقالت متهكمة : مبادئكم ! وهل لمثلكم مبادىء يصدر عنها ؟ فغضب الزعيم وتقدم إليها يريد شراً فأمسكت به وقلت له : أيها الحبيب الزم نفسك ، ولا يخرجنك كلامُها عمّا ينبغى أن تتحلى به . فقال : طفح الكيل . فقلت : كيلُك صغير أيها الحبيب . فعليك أن تستبدل به كيلا آخر . فابتسم ابتسامة الرضى — ويالها من ابتسامة ساحرة من ذلك الفم العاجى ! —

وقال : سامحينى . فالرأى لك . فقلت : أيها الحبيب ، أوسع لها مكاناً بجانبك وغداً نسوّى المسألة بينكما . فانكمش فى مكانه . فقلت لها : تفضلى أيتها العزيزة . فنظرت إلى المكان بازدراء وقالت : أتريدننى أن أرضى بالتنازل عن إرادتى ، ومعاناة الضيق فى هذا المجلس ؟ قلت : إلى غدٍ . قالت : وليس إلى دقيقة . ودفعت الزعيمَ بمنكبها بعنف ، واستقرت حيث تريد ، وهى ترغى وتزبد ، فكاد الزعيم أن يقابل القوة بالقوة ، ولكنى أمسكت به وقدته إلى مجلسى ، وأحطت عنقه بذراعى فاستسلم . . . .

وأسدل الليل علينا ثوباً كثيفاً ، ولكنى لم أغمض طرفاً . فقد أنفقت الليل كله أفكر فيما رأيت وما سمعت .

٢٩

على كثرة ما فكرت طوال الليـل ، لم أصل إلى نتيجة حاسمة . فقد كانت أفكارى مشوشة ، متقطعة متنقلة ، فما أبدأ فكرة حتى تقفز إلى رأسى فكرة أخرى . وما أمسك طرفها حتى تنتهى إلىَّ فكرة ثالثة . وهكذا إلى مالا نهاية له . وكيف يصح أن يستقيم الفكر والنفس قلقة تُحاول أن تبرم أمراً خطيراً

فى وقت لم يخلق إلا للراحة والسكون ؟ .

ولما نبا بى المقام ، وأضجرنى سقم الأفكار ، رأيت أن أترك مضجعى فى الهزيع الأخير من الليل ، وأخرج إلى الساحة . وجلست تحت تلك الشجرة التى طالما كنت أجلس تحتها فى الأيام الخوالى . رفعت رأسى إلى السماء ، و إذا النجوم تتلألأ فى القبة الزرقاء ، ما بين كبير وصغير ، قريب و بعيد ، ساكن ومتحرك . لم أستطع أن أحصر تفكيرى فى الموضوع الذى أرّقنى ، لأن نجوم السماء كانت تجذب جميع تفكيرى إليها . ما هذه العوالم المنتشرة فى السماء ؟ وكيف توزعت فى أبراجها على هذه الأشكال العجيبة دون أن يزاحم بعضُها بعضاً ، أو أن يصدم بعضُها بعضاً ؟ يجب أن تكون هذه الملايين من النجوم قد تقاسمت الفضاء تقاسماً قائماً على الحكمة والعدل حتى تجنبت الصدام والزحام . إن هذه السماء بريئة من كل بغى وجور وخصام ، وليس فيها نجم كبير يطغى على نجم صغير ، وليس فيها نجم قوى يستطيع أن يستبد بنجم ضعيف ...

وهذا التوزع العادل فى السماء له نظيره على الأرض . فعالم الأزهار الذى شاهدت بعضه فى أثناء خروجى مع الصغار فى

الأيام السابقة يقوم على نفس النظام العادل الذى تقوم عليه النجوم فى السماء . فما رأيت بينها زهرة قوية تبطش بزهرة ضعيفة ولا زهرة كبيرة تطغى على أخرى صغيرة . وعلى ذلك يحق لى أن أسمى أزاهير الأرض نجوم السماء . فهى نجوم برية مختلفة الأحجام والأشكال والألوان والروائح . وهى متعة المخلوق فى نهاره ، وموضع نظره واعتباره ، ومحل إعجابه وسروره ، ومنبع وحيه وإلهامه ، ومثار إيمانه واستسلامه بقدر ماهى نجوم السماء فى الليل . . ولو رُزقت الأزهار نوراً لأضحت نجوماً متلألئة فى الأرض . ولكنها حرمت النور ، وعوض لها بالألوان والعطور . والنور واللون والعطر أرواح ثلاثة سرها فى عِلْمِ خالقها .

كان ينبغى للمخلوق أن يستلهم من السماء والأرض نظام عيشه ، فيستقر كل مخلوق فى المكان الذى كتب له ، ويجرى كل مخلوق على السنن التى قدرت له ، ويعرف كل مخلوق حدوده دون أن يلتجىء إلى بغى أو عدوان . ولكن ما أعجب المخلوقات ! فإنها تستكبر على سائر ما خَلَقَ الله فى كونه الواسع الذى لاحَدَّ له . فتضع العمالقةُ الجبابرةُ نفسها فى المرتبة الأولى لما أُنعم عليها من بسطة فى العقل ، ثم تضع الحيوانات العجماوات فى المرتبة الثانية

لزعمهم أنها حُرمت نعمة العقل والنطق . وتضع النباتات فى المرتبة الثالثة ، والجمادات فى المرتبة الرابعة . ترى أ كانوا عادلين منصفين فى تقسيمهم ؟ أما طغوا وجاروا ؟ إنا إذا اعتبرنا هذه المخلوقات من حيث تنفيذ المشيئة الإلهية فى تحقيق العدل والسلام والتعاون ، لاقتضى أن يُعكس هذا الترتيب ، فنبدأ بالجماد فالنبات فالحيوان فالعمالقة . لأن العمالقة الذين تميزوا بزعمهم بالعقل انحطوا عن عالمى النجوم والنبات بما أفسدوا فى الأرض ، وبما اخترعوا من أضاليل وأوهام ، وبما سلكوا من معوج السبل ، وبما ارتكبوا من آثام وأخطاء . لقد ثبت أن عقل العمالقة المأفون أضعف من قوة الفطرة . وما عليهم إن أرادوا صلاح أنفسهم حقاً إلا أن يتركوا عقولهم المأفونة جانباً ، وأن يستسلموا للفطرة ، فهى أرشد إلى الصواب والحق .

وجهت بصرى إلى السماء أستلهم سداد الرأى فى المشكلة التى كوت جفونى بالأرق ، فإذا النجوم قد غارت وإذا نجم واحد قد ثبت فى مكانه فى المشرق ؛ هذا نجم الصباح ثبت فى مستقره يشيّع إخوانه جميعاً بابتسامة الإيناس إلى حين يلقاهم فى المساء . أكسبنى طولُ النظر فى النجم الفريد تجمعَ شتات أفكارى ،

فقد كانت متشعبة مع النجوم ، فارتدت الآن موحدة إلى مكانها من عقلى ، فأخذت أستعرض ماضىّ القديم حلقة حلقة ، وطوراً طوراً .

لقد نشأت فى بيئة ريفية أستمتع بالهواء الطلق ، والأرض الفسيحة ، ألتمس غذائى بنفسى ، وأجمع الحب بعرق جبينى ، فاكتسبت حرية الحركة ، وصفاء الذهن وسذاجة القلب ، ونقاء الضمير ؛ كانت حياتى فى تلك البيئة متمشية مع الفطرة الأولى ، ولم يقع لى ما يخدشها أو يفسدها ، وكانت الطبيعة التى عشت فيها مؤيدة لنوازع الفطرة ، فشببت على الصراحة والصدق والثقة بالنفس والحبِّ والإخلاص ؛ ثم انتقلت إلى هذا المأوى فتمتعت مدةً من الزمن بحب زوجى وعطفه ، واستمتعت بحياة مترفة طعامها كثير ، وماؤها غزير ، ولكني حُرمت حياة الطبيعة الحرة ، واصطدمت مبادئى التى نشأت عليها بمبادئ أترابى ، فخاصمننى وائتمرن بى وتحالفن ضدى ، وخرجت مبادئى سالمة ، ولكن نعمة صداقتهن لم تتم إلا بعد أن فُجعت بزوجى الصالح ، فاجتمع علىّ السرور والحزن فى آن واحد . ثم جاءت تربى ذات الوجه الغريب ، واتصلتُ بعشيرتها عن طريق الإحسان ، ثم

عادت إلى عشيرتها ، فكانت عودتها أقوى شاهد على أن الظفر للفضيلة . ثم رُزقت تربى العاقلة أولاداً فتحوا لى باباً جديداً إلى عالم الكفاح فى سبيل المُثل العليا ، فبنيت آمالا وأحلاماً ، وحسبت الدهر قد أقبل معوّضاً أحسن العوض ، وما كدت أجنى ثمار الحياة الجديدة حتى فُجعت بأترابى العزيزات ، فتذرعت بالصبر والإيمان . ثم تعلَّق قلبى بحب الزعيم ، وتعرضت لصراع عنيف بين عقلى وقلبى . وفيما أُعانى أهوال الصراع ، وألتمس الفرج من أشد فتنة بلوتها فى حياتى ، فوجئت بقدوم أسرة غريبة تجمّعت فيها مساوئُ المجتمع ورذائلُ البيئة الفاسدة . وأنا الآن أبلو محنة لا تقل هولاً عن تلك الفتنة ، ولكنى منفردة فى فتنتى ، ونتائجها تتعلق بنفسى ، أما المحنة فعامة البلوى ومصائرها تتناول الأعزاء جميعاً .

إن حياتى قد ساقها القدر فى طريق تستقيم تارة وتعوجّ تارة أخرى ، ولم يكن لى خيرة فى السير ، وهكذا حياة المخلوقات جميعاً تعلو حيناً وتنخفض حيناً آخر . وهم أضعف من أن يتملكوا زمام أنفسهم . ولكنّ هناك شيئاً واحداً استطعت أن أتمكن منه وأن أُخضعَه لمشيئتى التامة ، وهو : مبادئى السامية التى

استلهمتها من فطرتى الأولى . وسألتزم مبادئى هذه ما حييت ، لأنى غير مسئولة عن حوادث الدهر ، ولكني مسئولة عن مبادئى . وستذهب حياتى مع الذاهبين ، وسينقضى العمر مع الأعمار ، وسأصبح يوماً من الأيام حفنة من تراب ، وسأصبح منسية مع الزمن ، ولكن ما يجوز علىّ لا يجوز على مبادئى ، لأنها ستكون ميراث الأجيال بعدى ، وستخلد على الدهر ، وسيذكرها الناسُ فى كل عصر مع ما يذكرون من تُراث القدامى ، الذين وهبوا أنفسهم للمُثل العليا والمبادئ الفاضلة !! إن الجسم وما يتبعه من مطامع وشهوات وأهواء مصنوع من مادة ، والمادة إلى فناء ؛ أما النفس الخيرة الفاضلة ، وما يتبعها من مبادئ شريفة وأفكار سامية ومثل عليا ، فليست مصنوعة من مادة ، وإنما هى نفحات إلهية خالدة على الزمن .

وما شعرت وأنا سابحة فى لجة الفكر إلا بيد رفيقة تربت على كتفى . فالتفت مذعورة ، وإذا بيد الزعيم . . . فاستبشرت بوجهه الصبوح خيراً ، وقمت معه وأنا مؤمنة بأن تاريخى الذى استعرضته لن يُشَوَّه ، وأنى لن أخطىء التوفيق فى هذه المرة أيضاً . . .

٣٠

سرت مع الزعيم وتبعنا الأولاد ، متجهين نحو الريف . فسرنا مجدين إلى أن بلغنا مرتفعاً من الأرض فصعدنا فيه ، وجلسنا فى حلْقة كبيرة توسطتها ، وأجلست الزعيم إلى يمينى . وبعد أن استرحنا قليلا قلت للزعيم : إنى آسفة لما وقع فى الليلة الماضية . . فقال : لقد وُضعتُ فى مأزق حرج اضطرنى أن أخرج عن حدود الأدب . فقلت : وماذا عزمت أن تفعل ؟ فقال : لايمكن للمأوى أن يتسع لنا جميعاً . وَيعِزُّ علَىَّ أن أغادر المأوى الذى نشأت فيه لأخليه لهذه الأسرة الطارئة . ونحن بين أمرين : إما أن نتنازل عن مأوانا ، أو أن نتمسك به ونطرد الغريبات منه . فقال أحد الأولاد : لايُعقل أن نتنازل عن مأوانا الذى نشأنا فيه . والواجب يقضى أن تعود الأسرة من حيث أتت . فصاح الأولاد : هذا حق . وليس فينا واحد يهون عليه أن يفرّط فى مسقط رأسه . فقال الزعيم : إذن نحن متفقون . ويجب أن نعود حالا وننفّذ الخطة . وتحرك الأولاد يهمون بالعودة . فقلت : رويدكم أيها الأعزاء . أتظنون أن الأسرة تخضع لرأيكم وتغادر المأوى ؟ فقال

الزعيم : إنْ لم تغادره طوعاً غادرته كرهاً . وقال أحد الأولاد : لقد امتنعنا عن الانتقام من العمالقة خَشية أن يبطشوا بنا ، لأنهم أشدُّ قوةً منا ، وليس الحال كذلك الآن . فقلت : وإن نشب بينكم قتال فماذا تفعلون ؟ فقال الزعيم : إنْ حُمِلنا على الشر ركبناه . قلت : إذن تلتجئون إلى القوة . قال : نعم . قلت : إذن تؤيدون سلطان القوة ، وتحكمونه فيما يشجر بين المخلوقات من خلاف ؟ فقال الزعيم : لسنا مسئولين عن الخلاف ، فقد سببته الأسرة ، والشر بالشر والبادى أظلم . قلت : وإن وقع خلاف آخر مع فريق أشدّ منكم قوة ، فماذا تفعلون ؟ فنظر الأولاد بعضُهم إلى بعض متسائلين ، ثم قال الزعيم : نُدافع دفاع المستميت ، فإن تغلبنا ظفرنا ، وإن غلبنا متنا فى سبيل الواجب . فقال آخر : لو وقع لغيرنا من المخلوقات ما وقع فى مأوانا فماذا يجرى ؟ لنسترشد بتجارب غيرنا . فقال الزعيم : هذا حق ، ثم التفت إلىّ قائلا : أخبرينا أيتها العزيزة ماذا يجرى ؟ قلت : يلتجئون إلى القوة كما تريدون أن تفعلوا ، فقالوا . إذن نفعل كما يفعل غيرنا . فقال الزعيم : إذن لا يصح أن نلام . فنحن أولاً ندافع عن حق لا شبهة فيه ، وثانياً نرد ظلما حل بنا ، وثالثاً

نفعل ما يفعل غيرنا فى مثل حالنا . ورأيت قوله مصيباً . ولكنه لا يحل الخلاف ، ولا يلتئم مع المثل العليا التى تمسكت بها طوال حياتى . فأنا التى قاومت البغى وحكم القوة ، وكرهت الكبرياء كيف أسلم الآن حل هذه القضية للقوة ؟ قلت لهم : ألا تريدون أن يحتكم الحق فى قضيتكم دون القوة . قالوا : نعم . قلت : إذن لا ينبغى أن تلتجئوا إلى القوة . قال الزعيم : و إذن ماذا نفعل ؟ قلت : إذن ليس لكم إلا أن تنتشروا فى هذه الأرض ، وتبشروا الخلق بالخضوع للحق وحده ، وتقنعوا الباغى بأن بغيه يرديه . وعندئذ تحلون قضية عامة إنما قضيتكم جزء منها . ليذهب كل واحد منكم إلى بقعة من بقاع الأرض وليوقف نفسه على نشر العدل والمساواة والمحبة بين الخلق جميعاً ، ولتكن نفسه أصلب من الصخر فلا تلين ولا تستسلم ، لتزدكم المصاعب قوة ، والمهالك ثقة بمبادئكم ، والمقاومة إيماناً بالظفر ، قد يستهزىء بعض الخلق بكم و بمبادئكم ، وقد تجدون أنفسكم منفردين فى مسعاكم ، فلا يردنكم ذلك عن تحقيق قصدكم . إن العالم يعيش فى لجج من الضلال ، و إن قضايا الظلم والبغى والعدوان تتكرر فى كل يوم ، ولكن الخلق مهيأون لتحكيم مبادىء الفطرة القائمة على المحبة

والعدل والمساواة . وإن لم تفلحوا فستفلح مبادئكم على أيدى أعقابكم ، أو أعقاب أعقابكم

هناك ضلالات يجب أن تسلّوها من صدور الخلق بالرفق والحكمة . وهذه الضلالات هى منابع ما بلوتم ويبلو غيركم من مظالم لا عدّ لها . ومن هذه الضلالات التى يتردّى فيها الخلق ، أن المخلوق معرّض للجوع ، ولذلك يجب عليه أن يجمع معاشه عن أى سبيل من السبل . والواقع أنَّ هذه ضلالة كبرى . فليس فى الكون معدة تعانى الجوع حقاً ، إلا إن كانت لمسنّ أو مريض أو فقير أو صغير . وإنه لعار على الخلق أن يُعانى هؤلاء فراغَ المعدة . ولكن هؤلاء قليلون ، بل يكادون يكونون فى حكم النادر ، ومجموع الخلق لا يعدم وسيلة لملء معدته . ولكنهم يتوهمون تعرضَهم للجوع فيشتد جزعهم ، ويرتكبون فى سبيلِ إبعاد شبح الجوع الموهوم آثاما ومنكراتٍ هى مصدر شقاء العالم . فيسلب القوىُّ مال الضعيف ، والكبيرُ مالَ الصغير . وحين يتعرض الصغير والضعيف للظلم تثور فى نفسيهما أحقاد تدفعهما إلى ارتكاب الظلم ، وبذلك يورث الظلمُ ظلماً والشرّ شرّا .

ومن ضلالاتهم أن الفرد يستطيع أن يستمتع بالسعادة منفرداً

عمن حوله من المخلوقات . و بتأثير هذا الوهم يسرق اللص مال غيره ، و يلتجيء النذل إلى الخيانة ، و يتوسل الدنىء بالكذب أو النفاق أو الاحتيال . وهكذا . . . يستقلّ كل فرد باتباع السبيل الذى يجلب له السعادة الموهومة ، دون رعاية لما تنتجه آثامه هذه من شقاء عام للمجموع . ولو اعتمد كل مخلوق على عمله ، وكسب رزقه بعرق جبينه ، وترفع عن خداع غيره أو ظلمه أو خيانته لاستمتع المجموع بالُحب والتعاون والاخاء حقاً .

ومن ضلالاتهم أن المادة هى سبيل السعادة الوحيد . فمن كَثر ماله كثرت سعادته . وهذه ضلالة من أخطر الضلالات على المخلوقات . فالمادة ما كانت ولن تكون مصدر السعادة . قد تكون مصدر نعيم جسمى آنى لبعض المخلوقات . ولكن أكثر الذين تتضخم أموالهم إنما يجمعون المادة لمجرد حبهم إياها ، ومن أَحَبَّ شيئاً استهان بجميع الوسائل الشريفة فى سبيل إحرازه ، وبذل كرامته ومروءته فى سبيل الاحتفاظ به .

ومن ضلالاتهم أن النصر حليفُ القوة ، فيتخذونها وسيلة لقضاء حقوقهم ، وحل قضاياهم . والقوة ضدُّ الحق ، لأنه إن وجد

الحق أصبح لا حاجة للقوة.. فأفهموا من يتظاهر بالقوة أن قوته لاتدوم ، وأن الذى يدوم هو الحقّ وحدَه ، وأن الاعتماد على القوة إعزازٌ لسلطانِها ، وأنه إن استعمل سلطان القوة تردّى الخلقُ فى أكبر ضلالة فى الوجود . فكل قوى فوقه أقوى منه ، ومن التجأ إلى القوة حينا أُلجىء إليها حيناً آخر ، ومن صَرع بقوته يوماً صرعته قوة غيره يوماً آخر

هذه هى أيها الأعزاء وأمثالُها ضلالات تتحكم فى الخلق . فإن استطعتم أن تنتزعوها من صدورهم انقطعت أسبابُ البغى والخصام وجميع المساوىء التى بلوتم بأنفسكم بعضَها . هذا هو السبيل الوحيد للانتقام ممن وتركم فى أمكم وصديقاتكم ، وممن نَغَّصَ حياتكم فى مأوا كم .

ولكن لا يُقدم على مقاومة هذه الضلالات إلا من وهبه الله عَزماً وحزماً و إيماناً وثقة . لأنه لا سيبلو فى أثناء مقاومته صراعاً عنيفاً ، وكيداً شديداً فاذا تعرض أحدكم لذلك — وهو لا بُدَّ متعرض — فليذكر أن هذا الذى يتعرض له إنما هو نتيجة للضلالات التى يحاربها . ولتزداد مقاومته بازدياد قوة خصمه . وليجاهد بلسانه وماله ونفسه إلى أن يظفر بنشر مبادئه

أيها الأعزاء ، أن حياة الفرد جزء من حياة المجموع . فإذا سَعِد المجموع سَعِد الفرد بسعادته ، و إذا شقى المجموع شقى الفرد بشقائه وحياة المخلوق فى نفسها أشبه بثانية فى حياة الخليقة أو أقل . فانظروا إلى هذا الزمن ما أقله وما أحقره . ولكن هذه اللحظة أو ما هو أقل من لحظة ، قد تقدر فى حياة المخلوقات بسنوات أو قرون ، إن وهبت لخير العالم وصلاحه . إنَّ العالم الذى يتردّى فى الشقاء كالليلة الحالكة الظلام ، فالشرارة الصغيرة تُحدث فيها نوراً عظيما ، وكذلك النفس المصلحة التى تُبعث فى وسط الشقاء العالمى ، تُحدث فيه نوراً عظيماً . فكونوا أنتم تلك النفوس . سيحوا فى الأرض ، وتوزعوا بين الخلق ، وانشروا بينهم المثل العليا ، والمبادىء السامية . و إنى لواثقة بأنا سنلتقى فى مأوانا هذا بعد أن نطهِّر العالم أجمع — لا وطننا الصغير فحسب — من هذه الضلالات .

و إنى لن أتخلف عنكم فسأعمل كما تعملون . ولكنى عاهدت نفسى على أن أحفظ حُرمة ذلك المأوى الذى أودعتُ فيه جثمان زوجى ، وشاهدت فيه نموّ مبادىء . فسأعود إليه وأُصلح حال الأسرة التى هبطت عليه ، وسأذكركم ما حييت ، فاذكرونى

أنتم ما حييتم . وليجمعنا الصراع فى سبيل المُثل العليا فى كل لحظة من لحظات حياتنا . وليكن ذكرُنا اشتراكنا فى الجهاد مبعثَ قوة ونشاط لنا . أمهيئون أنتم للعمل ؟ فصاحوا جميعاً بصوت واحد : نعم فقلت : إذن هيا وانبعثوا فى الأرض .

ويالها من لحظة رهيبة أخذت فيها أقبل الأعزاء واحداً واحداً قبل أن يسلك كل سبيله فى الأرض . ولما جاء دورُ الزعيم وقعت عيناى على عينيه ووقفتا لحظات لا تريمان عن مركزهما . فرأيت فى عينيه مستقبل آمالى وأحلامى ، بعد أن كنتُ أرى فيهما شهوةَ نفسى . وكان الزعيمُ آخر من شيّعت ورأسى مرفوع ، وقلبى مطمئن ، ونفسى راضية .

ثم جمعت نشاطى ويممت شطر المأوى ، وفى نفسى نغمة ما فتئت تتردّد حتى بلغته . تلك هى : إلى اللقاء ... إلى اللقاء ...

الناشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

المحل الرئيسى بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة

فرع الاسكندرية : ٢ ميدان محمد على

وكالة فلسطين وشرق الأردن : شارع مأمن الله بالقدس

القاهرة س. ت. ٢٩٥٤٢